شواهد أخلاقية

محاضرات
العلامة الشيخ حسين العايش



بقلم
توفيق بو خضر

مؤسسة أم القرى للتحقيق والنشر

بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين

شواهد اخلاقية

مؤسسة أم القرى للتحقيق والنشر

اسم الكتاب: .... شواهد أخلاقية

محاضرات: .... العلامة الشيخ حسين العايش

بقلم: ....الشيخ توفيق بو خضر

الناشر: .... مؤسسة أم القرى للتحقيق والنشر

الطبعة الأولى: .... ١٣٨٤هـ / ٢٠٠٦م

لبنان / بيروت / الغبيري ص.ب ٢٧٨ / ٢٥

قم / ايران / ٥٩٨- ٣٧١٨٥. هاتف: ٧٧٣٥٦٤٦

info@Omalqora.net

شابك: ٢-١٨-٩٩٠٤-٩٦٤

شواهد أخلاقية

محاضرات:

العلامة الشيخ حسين العايش

بقلم:

الشيخ توفيق بو خضر

مؤسسة أم القرى للتحقيق والنشر

الإهـــداء

إلى من كانت أخلاقه درساً لطلابه

وابتسامته هدية لملاقيه ومحبيه

إلى من لم يورث إلا علماً

إلى من أرى نفسي حسنة من حسناته

ودعوة من دعائه المقبول..

إلى شيخي الجليل الأستاذ الشيخ عبد الحميد الناصر

وكل أساتذتي ومشايخي..

أقدم هذا العمل المتواضع عسى أن ينال رضاكم وأحصل به على دعائكم.

تلميذكم

توفيق بوخضر

مقدمة العلامة الشيخ حسين العايش

بسم الله الرحمن الرحيم

للقصة التأثير الكبير والفاعل في مجالات متعددة ولعل من أهم تلك المجالات المجال التربوي فالقصة تمثل تذكرة وعبرة يتذكر بها الآنسان الكثير من القيم التي اختزنها في اللاشعور فتصبح حاضرة لديه يستفيد منها وينهل من ريها ويعتبر بها من خلال الأحداث والمشاهد التي تجسد ما حصل فتبرزه حياً قادراً على التفاعل مع وجدان الآنسان من هنا نلحظ عرض القرآن الكريم لسير وأحداث ومشاهد للأنبياء والرسل والصالحين وما ذلك إلا أن تلكم المشاهد والأحداث تحمل في مضامينها العبرة المؤثرة وتجعل القارئ يحاول جاداً أن يستفيد مما حصل فيقتدي ببطل تلك القصة عندما يتعرض لحدث يقترب أو يماثل ما حدث لذلك البطل فمن ذا الذي قرأ قصة الصديق يوسف ولم يتأثر بذلك الطهر ويقترب من ذلك العفاف ويرى البارئ جل وعز حاضرا وناظرا ﴿وهو معكم أينما كنتم﴾ ومن ذا الذي قرأ قصة موسى ولم يتعرف على ذلك اللطف الآلهي الخفي الذي لا يدركه الآنسان مهما بلغ في غناه وتقدمه فهو القادر على أن يتربى موسى في بيت عدوه وتكتنفه الرعاية ويحوطه

اللطف فيخرج ذلك المجتمع الرازح تحت ذل العبودية إلى عالم الحرية والرفاه وهكذا الأمر عندما نقرأ إبراهيم عليه السلام فنرى قوة الآرادة وقمة التوكل على الله وتفويض الأمر إليه بيد أن تلك المعاني الكبيرة غير مختصة بالرسل والأنبياء عليهم السلام فالذكر الحكيم يستعرض قصة ذي القرنين ويبين أن جبروت القوة لم يحدث طغيانا بل كان يسير على صراط مستقيم بميزان من القسط وتطبيق لشريعة العدل وهكذا نجد لقمانا في نصائحه المليئ بالحنان والدافقة بالحكمة في أسلوب تربوي هادف يفصح لابنه عن التأثير السيء للكبر والاختيال ويبين له ضرورة الاجتناب عن الشرك وترسيخ التوحيد لله رب العالمين وصدق الله العظيم ﴿إن في قصصهم لعبرة﴾ من هذا المنطلق ارتأينا أن نذكر المؤمنين في شهر الله الكريم بقصص هادف لأعلام الطائفة لما لهذا من تأثير ايجابي في بناء الخلق الكريم وقد ربطنا بين القصة والموضوع فكل قصة ترتبط بموضوع أخلاقي أو عقدي مما جعل ذلك القصص يلامس شغاف القلوب ويقترب من الأفئدة وقد قيض الله لهذا الجهد فضيلة الشيخ توفيق بو خضر فكتبه بأسلوب رائع وعرضه علي فرأيته جديراً بأن ينشر لتعم به الفائدة غير أني أجريت عليه بعض التعديلات ليقترب من أسلوبي وليكون ملائماً لطرحي اسأل الله تعالى أن ينفع به وأن يكون مفيداً للمؤمنين وا لحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم على محمد وآله.

الأحساء ١٤٢٦/٥/٢٧هـ

المقدمة

لم يخلو زمان بعد الغيبة الكبرى من علماء يحملون هم الدعوة ويبلغون رسالات الله مخلصين في دعواهم، ومجتهدين في طريقتهم. تحملوا أصناف المشاق والعناء من أجل ذلك فاتهموا أنفسهم بالتقصير وحاسبوا أنفسهم وخوفوها من سوء المصير فروضوها بالتقوى فعلمهم الله من علمه.فهامت قلوب المؤمنين حولهم، وتعلقوا بأقوالهم، وأفعالهم لما شاهدوا آثار كرامات الله عليهم وصدق النية عندهم. فصاروا يقبلون عليهم مستمعين، ومتعلمين، ومستفهمين، فقادهم العلماء إلى النجاة.

ومن نعم الله علي أن طلبني ممن لا أستطيع رد قوله، ولا أخيب رجاه ـ وقد كان علي من المنعمين ـ في أن أقرر محاضرات العلامة الشيخ حسين العايش (حفظه الله)، والتي كان يلقيها معلماً وخطيباً في مسجد الإمام علي عليه السلام في شهر رمضان المبارك. فوافقت على استحياء مني خشية التقصير. وأن لا تساعدني الهمة والوقت وذلك لكثرة المشاغل التي لدي، وتشتت البال وسوء الحال. فسمعت قليلاً مما ألقاه الشيخ فسعدت بما سمعت، فوجدته مفيداً للأمة، لما فيه من سلاسة الفكرة

وتأثير القصة، وبراعة الموعظة فجددت عزيمتي، وقويت إرادتي على أن أستجيب لأخي في طلبه فاعتكفت ليلي على تقريرها، ونهاري على استخراج معانيها وأحاديثها. وترتيبها. فاستجزت من سماحة الشيخ على ذلك. فأجاز جزاه الله خيرا. فكان عملي في تقرير المحاضرات كما يلي:

أولاً: حفظت على جوهر قول الشيخ، وصغته بقلمي بحيث يتوافق مع أسلوب الكتاب والكتابة.

ثانياً: أضفت ما اقتضته الضرورة من بعض الآيات، أو بعض الروايات مدعمة لقول الشيخ.

ثالثاً: لم ألتزم بترتيب المحاضرات كما جاءت بل نظمتها بحيث يصبح شكل الكتاب مقبولا. وذلك لان المحاضرات كانت قصصاً وعبراً ولا ربط لبعضها إلا في كونها من الأخلاق الحسنة.

رابعاً: اخترت لها عناوينا حسب كل موضع بما يناسبه.

خامساً: أضفت فصلا في بداية الكتاب يتحدث عن القصة وتأثيرها حتى تكون كمقدمة للبحث ولفهم أهميته.

وأخيراً أسال الله أن أكون قد وفقت فيما رغبت فيه، وسعيت له. إنه ولي التوفيق.

القصص أبلغ المواعظ

لقد أرسل الله الرسل من اجل أن يبين للناس الأحكام الشرعية حتى ينقادوا إلى الحق والهدى، ولما كانت طبيعة البشرية ترفض أن تستجيب إلى الحق حتى تتيقن منه، أو يكون على الهوى فتميل إليه، وليس الدين بالهوى فتتهافت إليه النفوس كأي فعل، بل هو شاق على النفس؛ لأنه يقيدها عن العبث واللهو فأبت أن تستجيب له وكانت النفس كالطفل الصغير الذي يجهل مصلحته ولا يزال يبكي ويبكي من اجل الحصول على ما يرغب فيه. فهو لا يفهم الحق حينما يقال له، ولا يعي الواقع حينما يشرح له.

لذلك تجد أن التخاطب معه يكون باللين والعطف واستجلاب قلبه بالقصة والطرفة والموعظة الخفيفة حتى تستأنس بها نفسه وينقاد إليها حينما تتلاءم مع نفسه.

ولذلك أمر الله رسله أن يتعاملوا مع الإنسان في الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة وبالتي هي أحس فقال في كتابه: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ

رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾(١).

وعلم أنبياءه كيف يخاطبون الناس، ويوضحون لهم المفاهيم وذلك من خلال اللين في الدعوة حتى مع ألد الأعداء لله سبحانه وتعالى فأمر موسى وهارون أن يذهبا إلى من نازعه في الربوبية وقال أنا ربكم الأعلى بأن يخاطبوه باللين: ﴿فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾(٢).

وهذا القول هو الموعظة الحسنة، ومن المواعظ التي استخدمها الله وعلمها أنبياءه ورسله، هي ذكر القصص ليكون للمؤمنين سلوة وثباتا على الإيمان، فترى الله سبحانه وتعالى يذكر قصة السحرة مع فرعون وأخرى يذكر الفتى إبراهيم مع النمرود، وأخرى الشاب يوسف مع امرأة العزيز، وتارة الشاب البار بوالديه مع اليهود، وهناك قصص كثيرة، الغاية منها هو العظة، وتثبيتِ الفؤاد كما ذكر الله سبحانه وتعالى في كثير من الآيات فقال تعالى:

﴿وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾(٣).

---

(١) النحل: ١٢٥.

(٢) طه: ٤٤.

(٣) هود: ١٢٠.

وقال تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾[1].

إن هذه القصص التي ذكرها الله سبحانه وتعالى في القران الكريم هي أحسن القصص وعندما نتساءل لماذا؟

لأن الغاية من ذكرها هي إعطاء الأخلاق والصفات الحسنة بحيث يتعلم الإنسان من القصة ما لا يتعلمه من المحاضرة، أو الخطابة، أو الشعر، فهو حدث قد وقع،ووقوعه دلالة على إمكانه، إمكانه دلالة على القدرة على تطبيقه، وهو بذلك يقدم القدوة الحسنة التي يمكن أن يقتدي بها الإنسان المؤمن في حياته ويحذو حذوها.

وأبطال القصص التي ذكرها الله سبحانه وتعالى هي الرسل، أي أعظم نماذج البشرية التي يمكن أن يقتدي بهم الإنسان ومن سار على طريقهم فلذلك يقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاء أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ﴾[2].

ومع إن الله سبحانه وتعالى لم يذكر كل القصص والبطولات التي

---

(١) يوسف: ٣.

(٢) غافر: ٧٨.

جرت في التاريخ إلا أنه جمع الفضائل كلها ولم يترك صغيرة ولا كبيرة في هذا الكتاب إلا وقد ضرب لها مثلاً، يمكن أن يتعظ بها الإنسان، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ وَمَثَلاً مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾[1].

(١) النور: ٣٤.

كيف تقرأ القصص القرآنية؟

إن القراءة السليمة لهذا الكم الكثير من القصص الموجودة في القرآن الكريم، لا يقتصر على الإعجاب بالأسلوب الفني والأدبي للقصة، ولا ما يمثله ذلك السيناريو الرائع من عبارات جميلة وألفاظ مختصرة، بل لابد من قراءتها قراءة واعية، وفي سياق تجارب الأمم السابقة وتكاملها وتطور الفكر البشري، لاستلهام العبر والمواعظ منها لتكون نبراساً يحتذى به، وطريقا تسلكه الأجيال لبناء مجتمع متكامل،لأن الغاية التي من أجلها ذكرت تلك القصص قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلا الْعَالِمُونَ﴾[1].

إن الغاية هو التعقل، والتعقل لا يكون إلا من خلال العلم؛ لأن العلم نور وهدى، يزيل ظلام الجهل والتخلف.

إذن لكي تكون قراءتنا للقصة قراءة صحيحة لابد أن تخلق فينا علماً وعملاً ونوراً وهدى، حينها نكون فعلاً قد قرأناها كما أنزلت وزادتنا

---

(١) العنكبوت: ٤٣.

إيمانا: ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَـذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾[1].

من الأنبياء عليهم السلام إلى العلماء.

كثير منا من يتحجج بأن قصص الأنبياء عليهم السلام قريبة من الخيال، أو صعبة التحقيق لأن أبطالها معصومون لا يخطئون. ونحن بشر نخطأ ونذنب، ونفعل المنكرات فكيف تريد أن نتعظ بهم؟

العلماء بشر معرضون للخطأ، وغير معصومين، إلا أنهم سطروا أعظم الأمثال، وأروع القصص التي تقارب فعالهم فعال الأنبياء عليهم السلام وسلوكهم سلوك الأوصياء؛ لأنهم اقتدوا بالنبي الأعظم صلى الله عليه وآله كما قال لهم ربهم جلّ وعلا: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾[2].

ولذلك صار امتدادهم امتداد النبوة والرسالة، ولذلك قال رسول الله: «**العلماء ورثة الأنبياء**»[3]، وفي رواية أخرى: «**علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل**»[4] فذكرهم، وذكر قصصهم ما هو في الواقع إلا ذكر من اقتدوا بهم وهم الأنبياء عليهم السلام. فعالهم حجة علينا، لهذا نلاحظ كثرة الكتب التي

---

(١) التوبة: ١٢٤.

(٢) الأحزاب: ٢١.

(٣) الكافي ١: ٣٤.

(٤) عوالي اللئالي ٤: ٧٧.

تكلمت عن قصص العلماء والأوصياء، لأنها تخلق في الناس تأثيراً وقدوة تقودهم فيما بعد للتخلق بأخلاق الأنبياء عليهم السلام، وبذلك يكون ذكرهم مقدمة لذكر الأنبياء عليهم السلام؛ لأنهم نموذج مصغر عنهم، ويمكن أن يتعظ الإنسان العادي بهم بشكل أسرع وللنفس أطوع. وقد أفردنا في كتابنا «عبقرية مبكرة لأطفالنا» فصلاً كاملاً عن القصة وتأثيرها في تغير السلوك فراجعها[1].

---

(١) تجده في الفصل التاسع تحت عنوان: «المؤثرات على شخصية الطفل»: ٢٠٧.

السلوك الأول نحو الله

رفض التكبر

إن الحق الذي ينشده الإنسان لا يكون إلا من خلال رفع كاهل العجب عن نفسه الذي يحجبه عن القرب الحقيقي لله سبحانه وتعالى، بل حتى من كان قريبا منه مادام فيه صفة (الكبر) فانه سيكون مطرودا من رحمة الله.

قال تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ الرُّشْدِ لاَ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَافِلِينَ﴾[١].

فأن أول معصية عصي بها الله هو التكبر على أوامر الله سبحانه وتعالى. فالتكبر كما ذكر العلماء له مراتب ثلاثة:

الأولى: التكبر على الله سبحانه وتعالى.

---

(١) الأعراف: ١٤٦.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾[1].

الثانية: التكبر على الأنبياء والرسل.

قال تعالى: ﴿فَقَالُوا أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ﴾[2].

الثالثة: التكبر على الخلق والقرناء حيث يرى نفسه أكبر منهم.

إن المانع الأساسي لعدم إيمان هؤلاء بالرسل هو تكبرهم واستعلائهم؛ لأن من آمن بالرسل هم من طبقة الفقراء، لذا فهم يرفضون أن يكونوا في صفوفهم. يقول الله تعالى: ﴿فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قِوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾[3].

وكما أن التكبر سبيلا من سبل الهلاك فأن ضده وهو التواضع سببا من أسباب النجاة سواء كان في الآخرة، أو في الدنيا. فأن المتواضع يكون محبوباً لدى الناس، قريباً منهم، ينال رضا الله، ويرضي الله الناس عنه لدماثة أخلاقه وحسن سلوكه مع الآخرين. ومهما كان الشخص في

---

(١) البقرة: ٣٤.

(٢) القمر: ٢٤.

(٣) هود: ٢٧.

حالة من العنجهية والغرور إذا تواضع ولو مرة واحدة فأنه سيشمله ذلك التواضع بالخير في حياته وهذا ما يذكره لنا السيد دستغيب (رحمه الله) في أحد كتبه حيث يروي قصة مسئول عسكري كبير في الدولة العثمانية كان مديراً لقسم من أقسام الجمارك والمفارز التي تفصل بين دولة وأخرى. ولأنه كان في هذا المنصب أستغل منصبه بأن يفرض على الناس بعض الضرائب التي ترجع له شخصيا، كان يأخذ العشر، وفي يوم من الأيام صادف أن جاء أحد التجار والشخصيات الثرية والمرموقة من إيران إلى العراق من أجل زيارة أمير المؤمنين علي عليه السلام وكان يحمل معه ذخائراً نفسية وأموالاً طائلة اصطحبها معه في سفره إلى العراق وصل إلى المنطقة التي يشرف عليها ذلك العسكري التركي المتكبر فما أن رأى ما لديه من الأموال والذخائر حتى أمر بأخذ عشره أنزعج التاجر لهذا الأمر الظالم، فكيف يأخذ العشر من هذه الأموال الطائلة بلا سبب؟

فذهب التاجر إلى هذا المسؤول وطلب منه أن يعفيه من هذه الضرائب؛ لأنه ذاهب إلى زيارة أمير المؤمنين علي عليه السلام، لا إلى التجارة ونحوها، فلماذا هذه الجزية والضريبة؟ وكلما حاول أن يسترضيه عاند وكابر. فقال له التاجر مهدداً: سوف أشكيك عند أمير المؤمنين علي عليه السلام.

فرد عليه باستهزاء: إشتك عليّ عند إمامك أمير المؤمنين، لا يهمني ذلك.

أجابه التاجر: سأشكيك عند عليّ عليه السلام وسأتوسل به إلى الله في أن

يمقتك.

قال: لا بأس، إفعل ما تريد.

فلما خابت مساعي التاجر الإيراني امتلأ غيضًا وألماً. وعندما وصل إلى النجف تهيأ لزيارة مولانا أمير المؤمنين عليه السلام، توجه إلى الحرم وظل في حرم الإمام علي عليه السلام طوال الليل يدعو الله ويتوسل اليه، طالباً أن يمقت ذلك العسكري الذي ظلمه ذلك الظلم الفادح والكبير، بأخذ هذا المقدار الكثير من أمواله. وبعد رجوعه إلى مقره وخلوده إلى النوم رأى الإمام أمير المؤمنين عليه السلام في عالم الرؤيا يقول له: دعه لنا ـ يقصد المسئول التركي ـ

جلس من نومه مستغرباً ومتعجباً، كيف يطلب الإمام عليه السلام منه أن يدع ذلك الظالم له؟ فخاطب نفسه بالتوهم وعدم إمكان صدور هذا الأمر من الإمام عليه السلام.

جاء الليلة الثانية وفعل كما فعل في الليلة الأولى أو أكثر، وأصر على دعائه وتوسله من أجل أن ينتقم من هذا التركي الظالم. فرأى الإمام عليه السلام في عالم الرؤيا ثانية يقول له الإمام عليه السلام: دعه لنا.

وفي الليلة الثالثة أيضًا رأى الإمام أمير المؤمنين عليه السلام بعد ذلك التوسل والإمام يقول: دعه لنا فإنّ له حق علينا.

ففي الرؤيا كان التاجر مستغرباً ومتألماً في نفس الوقت، فسأل الإمام: وما هو حقه عليكم؟

قال: إنه لما أرادوا الهجوم على النجف كان هذا الشخص قائد الكتيبة العسكرية، وعندما هموا بدخولها، قام هذا القائد بنزع حذائه وأمر جميع أفراد الكتيبة بنزع الأحذية وقال لهم: أنتم أمام أكبر شخصية عسكرية في التاريخ.

وهكذا جلس من نومه معتقداً بصحة ما رأى، وعدل عن دعائه في حق هذا الرجل، ومضى في زيارته بشكل طبيعي. وعند رجوعه إلى إيران رجع من نفس الطريق، فرأى نفس المسئول. فلما التقى قال الرجل للتاجر الإيراني باستهزاء:

أشكوتني عند إمامك؟

قال: نعم شكوتك عنده.

قال وهو يضحك: لم يفعل بي شيئا؟

قال التاجر: نعم، الإمام أمير المؤمنين قال: إنّ لك عليه حق.

قال: أنا!! ليس لي حق عليه؟

قال: بلى، إن لك عليه حقاً، فلذلك عفوت عنك، وأبحت لك ما أخذته مني ووهبته لك.

تعجب المسئول التركي ووقف متعجباً ومتحيراً من كلام التاجر ودعواه وما رآه في منامه.

فقال: وما هو حقي عليه؟

قال التاجر: أتذكر عندما دخلت إلى النجف أنت والكتيبة العسكرية

فخلعت حذاءك وأمرت العساكر أن تخلع أحذيتها تواضعاً لمقام الإمام علي عليه السلام.

قال: ومن قال لك ذلك؟

قال: الإمام نفسه أخبرني بذلك في عالم الرؤيا.

وقف هذا الرجل لحظات صمت، وقال: أشهد أن لا إله إلاّ الله وأشهد أنّ محمدًا رسول الله وأشهد أنّ عليّاً ولي الله.

ونحن حينما نتأمل في هذه الحادثة التي وقعت نجد أن هذا العسكري مع تجاوزه إلا أن الهداية قد شملته واهتدى للولاية ببركات تواضعه لمقام أمير المؤمنين عليه السلام.

وعندما نتساءل لماذا يتكبر الإنسان على غيره؟

يقول العلماء: إن تكبر الإنسان ناشئ من جهل لديه واعتقاد خاطئ من أنه يمتاز على غيره بخاصية يفتقدها الآخرون كالغنى مثلاً، أو الجمال، أو الوجاهة الاجتماعية، أو القوة الجسدية، أو المنصب ونحوه وما علم هذا المتكبر أنه كم من غني افتقر، وكم ذو جمال تلاشى جماله، وكم قوي خارت قواه، وكم صاحب وجاهة ومنصب زال عنه ذلك اللقب وصار ممقوتا بسبب كبريائه وعنجهية.

فمن تواضع لله فأن الله يرفعه إلى أعلى عليين. وليس التواضع إلا أن يعتقد الإنسان أن ما عنده ليس من ذاته بل هو من عند مولاه وخالقه سبحانه وتعالى فيتواضع له ويرضخ لكبريائه. فقد جاء عن الإمام

الباقر عليه السلام: «**الكبر رداء الله**»[1]، فإذا علمت ذلك أيها السالك إلى الله أخلع عنك رداء الكبر والتكبر وتواضع إلى الله، واجعل قلبك محلاً للكلمات النورانية والأخلاق الفاضلة حتى تزيل كل ذرة من كبر، فعنهم صلوات الله عليهم أنهم قالوا: «**لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من كبر**»[2].

وعنهم عليهم السلام: «**ما من أحد تكبر أو تجبر إلاّ لذلة وجدها في نفسه**»[3].

(١) الكافي ٢: ٣٠٩.

(٢) الكافي ٢: ٣١٠.

(٣) الكافي ٢: ٣١٢.

الإخلاص للمحبوب

لكل فعل يفعله المختار غاية ينشدها فتارة يقصد أمرا محللا، وآخر محرما، وليس حديثنا عن الأمر المحرم، لأنه معصية بل كلامنا عن الأمر المحلل. فتارة تفعل أمرا و تقصد به دخول جنة أو خروج من نار أو نجاة من عذاب، وتارة لا هذا ولا ذاك، بل الغاية من الفعل هو أمر أسمى منها جميعا وهو رضا المحبوب والقرب من الذات المقدسة، فبغض النظر عن الغايات الأخرى وما يحققه هذا الرضا. فأنت معرض عن كل شيء سواه سبحانه وتعالى فمتى قصدت بالفعل ذاته وله غافلا عمن سواه فأنت مخلص له في العمل، مطهر قلبك من الشرك الخفي، وبذلك تصفوا مملكة الباطن، وتخلو لصاحبها الحقيقي ويكون قلبك عرش الله. وهذا الذي أمر الله عباده أن يحققوه في سعيهم نحوه. قال تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إلا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاء وَيُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾[1].

---

(١) البينة: ٥.

ولهذه المرتبة علامة يعرفها صاحبها، وأشار إليها سبحانه وتعالى على لسان الشيطان الرجيم: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۞ إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾[1].

وهذا الاستثناء من الشيطان هو اعتراف منه بعدم القدرة على عباد الله المُخلَصين وذلك لأن كيد الشيطان ضعيف أمام قوة الله وجنده، فمتى تحول القلب إلى حصن لجنود الله، فهل يتأتى للشيطان من اختراق حصون الله، والتأثير عليها بالوسوسة، ولهذا قال الله تعالى: ﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾[2].

كيف يصل الإنسان إلى مرحلة المُخلصين؟

يصل إلى هذه المرحلة بالمداومة على الأعمال الصالحة بنية خالصة لله وحده، ومراقبة النفس حتى لا تحيد عن ذلك، فإذا حافظ السالك إلى الله على هذا السلوك وواظب عليه، استخلصه الله وجعله خالصا له، عندها تبدأ آثار الاستخلاص تظهر على صاحبها، ومن أول تلك الآثار ضعف الشيطان وعدم قدرته على إغواء المخلصين .

ومن الأمور التي يجب أن يلتفت إليها إن عدم قبول العمل عند الله لا يعني عدم إعطاء الثواب من قبله سبحانه وتعالى، فهو كريم، فمتى

---

(١) الحجر: ٣٩ـ٤٠.

(٢) النساء: ٧٦.

عملت عملاً وكان لله فيه نصيب كافأك في الدنيا بالمجازات، فمثلاً لو تصدق إنسان ولم يكن مخلصاً في نيته، بل شابها إعجاب بنفسه وزهوا بأنه يتصدق على الفقراء ويحسن للضعفاء ويرحم المساكين، فان الله يدفع عنه البلاء، ويزيد في رزقه، ولكن هذا الجزاء لا يعني أن الله قبلها منه. أو قد يقبلها ولكن بمقدار الإخلاص الذي يكون يتضمنه العمل وبالتالي يكون الجزاء على حسب صفاء نيته وطهارتها من كل شائبة فيه غيره.

ميزان الأعمال يوم القيامة:

إن الطريقة التي توزن بها الأعمال يوم القيامة تختلف اختلافا كليا عن الطريقة التي توزن بها في عالمنا الدنيوي، ففي الدنيا يقاس قسمة العمل بمقدار ما يقدمه الشخص، إن كان كثيرا أو قليلا، وقد يلحظ معه الكيف وأحيانا لا يهم. أما في عالم الآخرة فليس للكم قيمة بل القيمة الحقيقية للكيف حتى لو كان قليلا جدا كحجم الذرة، ففي الدنيا هذا الحجم الصغير لا قيمة له، ولكن عند الله قد يكون له وزن عظيم جدا. قال تعالى:

﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾[1].

﴿إِنَّ اللّهَ لاَ يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ

---

(١) الزلزلة: ٧

مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾[١].

ومن هنا كانت ضربة علي صلوات الله عليه يوم الخندق تعادل عمل الثقلين جميعاً، لما فيها من الإخلاص في مراتبه العليا، ويستحيل أن يصل أحد من الناس إلى هذه المرتبة. فكانت ضربته تعادل كل عمل إلى قيام يوم الدين. ولذلك قال الشاعر الإيراني:

ازعلي آموز إخلاص عمل   شير حق را دان منزه از دغل

أي من علي صلوات الله عليه تعلم الإخلاص في العمل، وكيف توصل عملك إلى رضا الله، وذلك من خلال تجريد النية عن كل شيء إلا هو سبحانه وتعالى. ولذلك مدح الله سبحانه وتعالى عمل علي وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام في إطعامهم للفقير، والمسكين والأسير، فقال تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۞ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلا شُكُورًا﴾[٢].

ولكي نضرب مثالا رائعا آخرا على أن ميزان الأعمال ليس كثرة العمل بل نية العامل فيها، ينقل أن أحدهم رأى الشيخ المجلسي في عالم الرؤيا وهو في نعيم وجنان، وخلد ورضوان، فلما سألوه عن السبب الذي أوصله إلى هذه المنزلة، هل هو بسبب كتابه «بحار الأنوار»؟

---

(١) النساء: ٤٠.

(٢) الإنسان: ٨ـ٩.

فأجابهم الشيخ: لا، وإن كان هذا عظيما جدّاً.

قالوا له: إذن كيف وصلت؟

قال: هذا جزاء تفاحة.

قالوا له باستغراب: تفاحة؟

قال: نعم فقد كنت يوما أسير في الطريق وفي يدي بعض التفاحات، فرأى طفل كان مع أمه التفاحات التي بيدي فرغب الطفل في الحصول على واحدة منها ... فبكى وألح على أمه لتشتري له تفاحة يأكلها، فردت عليه أمه: أنى لنا نحن بشراء التفاح يا ولدي؟

فلم سمعت كلامها تقدمت نحو الطفل وأعطيته تفاحة لكي يأكلها ولم أقصد حينها سوى وجه الله. وهذا هو جزاء التفاحة.

ينقل السيد المرعشي عن أحد زملائه العلماء أنه كان فقيرا جِدّاً بحيث لا يملك مكانا يعيش فيه، وكانت حياته مثل حياة الدراويش فمكانه أين ما حلّ به المكان، وقد اتخذ هذا العالم مسلكًا خاصّاً في الحياة، فليلة ينام عند قبر المحقق القمي، وأخرى في مكان أخر وهكذا وفي ليلة من ليالي الشتاء القارص، حيث الثلج يتساقط التجأ إلى الغرفة التي كان ينام فيها في المقبرة، وعندها بدأ تساقط الثلج بكثافة غزيرة فلم يعرف كيف يخرج من الغرفة، وكانت خالية من كل شيء بحيث عجز حتى عن أداء صلاة الليل، حيث لا ماء فيها ولا تراب ليتيمم، وظل كذلك حتى دخل الفجر، وهو محتار لا يعرف كيف يصلي؟ فظل يذكر

الله حتى كادت الشمس أن تطلع.

قال: لا!! الصلاة لا تترك بحال، فقام يصلي صلاته بدون وضوء وبدون تيمم، و لما وصل إلى القنوت، أخذ يناجي ربه، قال: إلهي أعطيتني الخبز مع الجبن فرضيت، فقبلت بكل شيء أعطيتنيه رضا لك يا ربي، ولم أسألك الزيادة في رزقي أو التوسعة علي، فها أنذا بين يديك يا ربي أقدم لك صلاتي هذه من دون وضوء وتيمم، لا حيلة لي، راجياً منك القبول.

فكان يناجي ربه بهذه الكلمات وعندما توفى هذا العالم فيما بعد رآه أحد العلماء في عالم الرؤيا وهو في مقام عظيم.

قال له: كيف وصلت إلى هذا المقام؟

قال: بتلك الصلاة التي كنت أناجي بها الله.

أقول له: يا إلهي أعطيتني فرضيت، والآن أقدم لك صلاتي هذه وأنا غير قادر على الوضوء أو التيمم بسبب ما أنزلته علينا من ثلوج أدت إلى غلق الباب فكيف أصلي؟

فقبلها الله مني ونلت هذه الدرجة الرفيعة.

ونحن من خلال هذه الأمثلة الرائعة نعرف أن الميزان الحقيقي عند الله هو كيفية أداء العمل والإخلاص فيه، ولذلك جاء عن النبي صلى الله عليه وآله في الحديث القدسي عن جبرائيل عليه السلام إن الله تبارك وتعالى يقول: «**الإخلاص سر من أسراري استودعته قلب من أحببت من**

عبادي»[1].

وعن النبي صلى الله عليه وآله يقول: «**أخلص قلبك يكفيك القليل من العمل»**[2].

وأيضًا فيما كلم الله به موسى عليه السلام: «**يا موسى ما أُريد به وجهي فكثير قليله، وما أريد به غيري فقليل كثيره»**[3].

وهذا معنى واضح وجميل. أسال الله أن يرزقنا وإياكم درجة الإخلاص في العمل ويجعلنا من المخلصين له بحق محمد واله.

---

(١) الجواهر السنية: ١٦٧.

(٢) بحار الأنوار ٧٠: ١٧٥.

(٣) تحف العقول: ٤٩٣.

ذكر الله في كل حال

يعتبر الذكر من أعظم الأمور التي تكشف عن تعلق العبد بخالقه، أو بالمذكور. وكلما كان اللسان لهجا بالذكر كلما تحكم المذكور في قلب الذاكر سواء من الناحية الروحية، أو الجسدية والصحية فقد أثبتت بعض الدراسات العلمية في علم الأصوات، أن كل صوت له تأثير على واقع الإنسان من حيث التحرك والتجدد في الحيوية، وأن لكل حرف وقع خاص على مسار البدن وبالتالي تنعكس على الروح، من هنا نجد أن الله سبحانه وتعالى يقول أن لتأثير ذكر الله وأسمائه خصوصية وهي:

أولاً: جعل القلوب مطمئنة.

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللّهِ أَلاَ بِذِكْرِ اللّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾[1].

وثانياً: تقوي القلوب وتعطيها الثبات من خلال الاطمئنان.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُواْ وَاذْكُرُواْ

---

(١) الرعد: ٢٨.

اللّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلَحُونَ﴾[1].

ثالثاً: يزيد في الإيمان ويقوى التعلق بالله أكثر.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾[2].

وهناك أمور كثيرة تتعلق آثارها بذكر الله سبحانه وتعالى. ولا يتعلق الذكر الإلهي في مواطن الحرب فقط، بل في كل آن يجب أن يكون الإنسان ذاكراً لله سبحانه وتعالى وفي كل آناته وحركاته بحيث يصدر منه الذكر من غير تأمل، وبدون روية فيكون الذكر سجية لدى الذاكر.

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىَ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾[3].

ومتى كان الإنسان ذكرا لله، وتعلق قلبه به سبحانه وتعالى فأن الله يجعل للذكر هيبة، ومحبة في قلوب المؤمنين من غير أرادة منهم، فهيبته ووقاره الذي أكتسبه من خلال الذكر الإلهي يجعل الناس يلتفون حوله. ولذلك نلاحظ ما يلاقيه السيد محمد علي العلي من علماء منطقتنا

---

(١) الأنفال: ٤٥.

(٢) الأنفال: ٢.

(٣) آل عمران: ١٩١.

«الاحساء» بصفة الذكر الدائم الذي يجري على لسانه بحيث أني لم أره إلا ذاكرا لله سبحانه وتعالى وهذا يدل على صفاء النفس وحسن السريرة واتباع منهج أهل البيت عليهم السلام الذين يوصون شيعتهم بمداومة الذكر على كل حال.

فلذلك تجد الإمام زين العابدين عليه السلام يقول في الصحيفة السجادية: **«إلهي بك هامة القلوب الوالهة وعلى معرفتك جمعت العقول المتباينة فلا تطمئن القلوب إلاّ بذكراك ولا تسكن النفوس إلاّ عند رؤياك»**[(١)].

رؤياك هذا إشارة إلى مرتبة اليقين التي يبينها قوله تعالى: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾[(٢)].

فلا تسكن النفوس إلاّ عند رؤياك، الرؤية تبيان لحقيقة اليقين التي يصل إليها الإنسان بعْد إدمان الذكر، وأيضاً ورد عنه في الصحيفة السجادية: **«إلهي فاجعلنا من الذين ترسخت أشجار الشوق إليك في حدائق صدورنا واطمأنت بالرجوع إلى رب الأرباب أنفسهم وتيقنت بالفوز والفلاح أرواحهم»**.

ومن عجائب ذكر الله، أن الله جعل لكل شيء حداً إلا الذكر فقد

---

(١) الصحيفة السجادية، مناجاة الذاكرين: ٤١٩.

(٢) الحجر: ٩٩.

جعله مطلقا لم يحدد له وقتاً، ولا مكانا بل أمر بأن يذكر الله على كل حال. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْراً كَثِيراً﴾[1].

ومتى كان القلب ذاكراً كان من أهل لا إله إلا الله، ومتى كان كذلك جرت على يديه الكرامات، والنتائج السريعة بفضل ذكر الله، ففي إيران في منطقة أردبيل حيث يقطن فيها المسلون والنصارى، فانه من الطبيعي أن تحدث بعض الأحاديث الجانبية في أحقيّة أي دين ونحوه.

ومن الطريف ما ينقل: أن أحد العلماء هناك جرت له مناظرة، أو قل مباهلة مع النصارى.

زار رجل من القساوسة إلى أحد علماء المسلمين في حضور جمع من المسلمين محاولاً إضعاف شأن الإسلام في نفوس معتقديه في تلك المنطقة من خلال توجيه بعض الأسئلة التي يعتقد أن من خلال طرحها سيفرمه وبذلك تسقط هيبة الإسلام في نفوسهم. فابتدأ بقوله:

أريد أن أبين لك حقانية الديانة المسيحية وعظمة هذه الديانة عند الله، وأريد منك أن تظهر لي حقانية الدين الإسلامي بمثل ما أبينه لك.؟

قال: أيهما أكرم على الله من يحفظ له الأمور والأمانة التي تتعلق به أو الذي لا يوفق للحفاظ عليها؟

ومن الأمور التي لا يختلف فيها اثنان أننا عندما نبني الكنائس يدوم

---

(١) الأحزاب: ٤١.

بناؤها عشرات السنين[1]، وأنتم تبنون المساجد فلا تدوم حيث تتهدم وتتلاشى في خلال فترة محدودة وتنتهي؟ أليس هذه كرامة وتأييداً إلهياً وإبانة لحقانية الديانة المسيحية على الدين الإسلامي؟

قال بعض المغفلين الحاضرين والذين لا يملكون رؤية علمية أنه دليل قوي على صحة ديانتهم.

فأجاب العالم: هذا دليل باطل.

قالوا: له كيف يا سيد يكون هذا الدليل باطلاً؟

قال: أبين لك الأمر، قال أنتم تذكرون الله لكن ذكركم ليس له تأثير في الموجودات؛ لأنكم لا تذكرون الله بالذكر الذي يريده الله بالقرآن الكريم باعتباره ناسخ للديانات السماوية السابقة والقرآن أشار إلى ذلك في قوله تعالى: ﴿**لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ**﴾[2].

فأنتم الآن تبنون كنائسكم من صخور الجبال، نحن لو نذكر الله في كنائسكم لتهدمت الكنائس وهدت لكن نحن نذكر الله في أماكن بنيت

---

(١) جرت عادة المسيحيون أن يبنوا الكنائس بناءً قوياً ومحكماً بالاستفادة من الصخور بخلاف المسلمين حيث كانوا يستخدمون اللبن والطين في بناء مساجدهم، فلهذا كانت تدوم الكنائس فترات أطول.

(٢) الحشر: ٢١.

من طين، فذكر الله يؤثر في هذا الطين بشكل أكبر وأقوى وتنهدم، ولا تستقر وما لها قرار.

فرد القسيس قائلاً: أريد أن أجربك، أليس أنت عالم المسلمين وتذكر الله تعالى كما أراد؟ فاذكر الله في الكنيسة كما تدعي ونرى هل تتهدم؟

فأجاب العالم: إن كنائسكم لا تتحمل ذكر الله.

قال: تعال لنرى وأثبت لنا ذلك بالدليل.

فأجاب العالم: إذن سآتي إلى الكنيسة وحدي وأذكر الله وسترى هل تريد الآن، أم تريد أن تحدد وقتاً معيناً؟

قال: أريد أن تأتي في يوم أنا أحدده.

اتفقا على يوم محدد، وعندما حان الموعد جاء السيد وقال: سأخرج من في الكنيسة واذكر الله وعندما أخرج فلا يدخل أحد بعدي، ومن يخالف سيعرض نفسه للموت..

تعجب الحاضرون من قول العالم الإسلامي، وبقوا ينتظرون العالم حتى يدخل ويذكر الله، فدخل في وسطها فقال «الله أكبر» ثم خرج بعدها انهارت الكنيسة كلها، فانبهر القسيس ووقف متعجباً لا يحرك ساكناً.

فانظر أخي كيف يكون لذكر الله ذلك التأثير العظيم في الموجودات الجماد إذا صدر من القلب، فيا ترى كيف يكون في

الأحياء، وكيف يكون إذا كان لإظهار حقانية هذا الدين الإسلامي القويم.

وعلى إثر هذا الحدث العظيم دخل كثير من الناس الدين الإسلامي واعتنقوه، وازداد إيمان المسلمين بالإسلام وتمسكهم به ثقة ورفعة وعزاً.

ومن خلال هذه الحادثة نعرف أنه متى ما كان الدعاء، والذكر من قلب لا سهو فيه ولا لهو فأنه يحقق آثاره المنشودة، لذلك يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «**لا تذكر الله سبحانه ساهياً ولا تنسه لاهياً واذكره كاملاً يوافق فيه قلبك لسانك ويطبق إضمارك إعلانك**»[1].

ومتى ما يذكر الإنسان الله بتوجه وخشوع لا تلهيه تجارة ولا بيع، ولا تغريه الدنيا بملذاتها يصبح عند الله ممدوحا في السماء ومعروفا في الأرض قال تعالى: ﴿**رِجَالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالأَبْصَارُ**﴾[2].

ومن أهم الأمور التي يجب أن يذكر الله فيها وقت المعصية حتى يردعه ذكر الله عن المعصية فيكون ذكر الله رادعا له عن فعل المحرم والكف عن المحرمات وبذلك يكون مقدمة للقرب من الله سبحانه

---

(١) عيون الحكم والمواعظ: ٥٢٥.

(٢) النور: ٣٧.

وتعالى، لذلك قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾[1].

---

(١) الأعراف: ٢٠١.

الرجوع من الذنب

من أعظم النعم التي أنعم الله بها على عباده هو فتحه باب التوبة لمن عصاه، ومغفرته لذنوب العبد الذي اقترفتها يداه.وما كان هذا إلا من باب لطفه سبحانه وتعالى ورحمته التي خلق الناس من اجلها لا لتعذيبهم والتشفي بهم، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا. ولكن هذه التوبة يلزمها شروط ذكرها العلماء في محلها، ومن أهمها الندم على الفعل وعدم العودة إليه.ومتى تحققت هذه الشروط لا يكتفي الله سبحانه وتعالى بأن يغفر له، بل يبدل سيئاته إلى حسنات من تلطفاً وتحنناً. قال تعالى ﴿إِلا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً﴾[١].

وهذه الذنوب سواء كانت ظاهرة بالجوارح، أو مخفية في الصدور فأنه متى ما عقدت النية عليها فإن الله يحاسب عليها. ومن الذنوب التي شاعت عند الناس وللأسف متساهلين ومتهاونين فيها: هي الإفتاء بغير

---

(١) الفرقان: ٧٠.

علم، وإطلاق الفتوى والحكم من دون تحرج أو خوف وكأنه يشرب الماء. بل هذا الإنسان متى ما سئل عن مسألة هندسية، أو رياضية، أو طبية، أجاب وهو لا يرى في نفسه نقصاً: إني لا أعرف، فلست طبيباً أو مهندساً. ولكنه في نفس يجيب عن المسائل الشرعية، ويفتي وفق هواه ظناً منه أن دين الله يصاب بالاستحسانات، أو بالظنون وهذا العمل من الذنوب الكبيرة التي توجب الدخول في النار والعذاب الشديد لأن فيه تغرير بالجهال، وتضليلهم حتى لو كان كلامه مطابق للواقع. وهذا ما دلت عليه الروايات في القاضي الذي يحكم بالحق وهو لا يعلم بأنه من أهل النار.

ولذلك قيل: «**من سئل عما لا يعلم فلا يستحي أن يقول لا أعلم**».

بل ترقى وقالوا: «**من قال لا أعلم فقد أحرز نصف العلم**».

ولكن هذا الجواب يحتاج إلى شجاعة كبيرة، يتحلى بها الإنسان وإلى تقوى وخصوصا لو كان المجيب صاحب منزلة كبيرة في قومه ومجتمعه، فإن الشيطان الرجيم يوسوس له بأنه متى ما قال: إني لا أعلم سقط من أعين الناس وضعفت مكانته، لذا يخاف هذا المسكين من ذلك فيصر على دعوى العلم، والإفتاء بالجهل. ولكن متى ما ألتفت إلى جهله وقال الحق فأن الله لا يكتفي بأن يغفر له، بل يعلمه من علمه سبحانه

وتعالى، لأن الله يقول: ﴿وَاتَّقُواْ اللّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللّهُ وَاللّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[1].

ومما يذكر في هذا المجال عن السيد الخوئي عن أستاذه الشيخ محمد حسين الكمباني الاصفهاني قال:

كنت وزميلي القروي ندرس أيام الشباب عند أحد العلماء، فجاءنا يوما واعتذر لنا عن إلقاء الدرس؛ لأنه لم يسعه الوقت ليطالع ويحضر له ولما ذهب التفتَ إلي زميلي وقال: هل تريد أن أخبرك لماذا لأعتذر؟ لأنه كان مشغولا بزوجة جديدة تزوجها في السر.

وسمع الأستاذ كلام زميلي القروي فطلب منه وبإصرار شديد أن يخبره كيف اطلع على الأمر ومن أخبره بذلك؟

فأجاب زميلي: كان والدي عالما على مستوى قريتنا، يرجع الناس إليه في مسائلهم الدينية، وهو يجيبهم ويبت في الزواج والطلاق وقضايا أخرى، فانتقل إلى رحمة الله، فجاء أهل قريتنا إلي ونصبوني مكانه، وأنا أجهل كل شيء عن الأحكام الشرعية، ولم ينفع رفضي وامتناعي في مقابل إصرارهم، فاضطررت لفترة قصيرة إلى ممارسة دور أبي على كراهة مني ولكن سرعان ما انتبهت من غفلتي وأنصتُ لتأنيب ضميري فدعوت أهل القرية يوما إلى كلمة هامة جدا، فأعلنت لهم في المسجد

---

(١) البقرة: ٢٨٢.

أيها الناس إن والدي كان يفتيكم وهو عارف بالأحكام الشرعية، أما أنا فقد أجبرتموني أن أحل محله، وليست لي معرفة بالأحكام، فالذي حصل هو أن ما أفتيتكم به ما تم من عقد للزواج وأجراء الطلاق لا يخلو من أشكال وخطأ.

وهنا هاجمني الحاضرون وأشبعوني ضربا، ولا ادري كيف تمكنت من التخلص منهم، فخرجت من القرية إلى الصحراء من غير هدف ومأوى، وبعد استراحة قليلة فكرت أن أغادر إلى النجف الأشراف لدراسة العلوم الإسلامية، وما أن قررت الحركة باتجاه النجف وخطوت قليلاً إلا ولقاني رجل ساطع الوجه فقال: إلى أين ذاهب؟

قلت: إلى النجف الأشرف.

قال: هل تريد صديقا؟

قلت: نعم وبكل تأكيد.

ووصلنا إلى النجف ولم اشعر بالتعب ولعل السبب هو استئناسي مع هذا الرجل الطيب، منذ تلك المرافقة والصداقة لا زال يأتيني ويتفقد أحوالي في حجرتي بين الحين والآخر، حقا انه صديق حميم جداً ورغم ما عليه من هيبة فإنه متواضع إلى أبعد الحدود، يسلب حبه قلب كل إنسان يراه للوهلة الأولى. هذا الرجل هو الذي أخبرني بأنك سوف تأتني غدا وتعتذر إلينا بتعطيل الدرس. هنا فهم الأستاذ أن الرجل ذا الوجه الساطع ولي من أولياء الله ولعله الإمام الحجة عليه السلام. ولكن الطالب

القروي لبساطته وصفاء نفسه لم يعرفه. لذا توجه إلى الطالب وقال له:

أسأل هذا الرجل هل يقبل أن أزوره وأتعرف عليه؟

قال الطالب: بالتأكيد يقبل، بل أنه لشدة تواضعه وأخلاقه الحسنة ربما يقول: أنه سيزورك إذا أردت.

فجاء الطالب واخبر صاحبه (الرجل المشع نورا) بطلب الأستاذ.

قال له الرجل: ابلغه أنه لا داعي الآن إلى لقائنا؛ بل إذا وجدنا أهلا لذلك نزوره بأنفسنا.

ونحن لم نجد في هذا الرجل القروي البسيط أي ميزة عن غيره إلا بأنه تاب عن ذنب الإفتاء بغير علم، واعترف للناس بحقيقة جهله، وبجراء ذلك الاعتراف العلني أمام الناس، إلى أن هيئ الله له رجلا يعلمه ما يجب أن يتعلم، وهو وعد الله: ﴿وَاتَّقُواْ اللّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللّهُ وَاللّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

ومن أهم شروط التوبة أيضا أن يخرج الإنسان نفسه من المحيط السيئ الذي يعيشه، ملبساً كان، أو مأكلاً، أو معاشاً، ونحوها، فلابد أن يجدد نيته بالخروج من عالم المعصية إلى عالم الطاعة، ومتى حقق ذلك كان على الله أن يغفر له ويتوب عليه بتوبته النصوحة، ويدخله جناته.

فقد روى الكافي عن الْحُسَيْنُ بْنُ مُحَمَّدٍ عَنِ الْمُعَلَّى بْنِ مُحَمَّدٍ عَنْ بَعْضِ أَصْحَابِهِ عَنْ أَبِي بَصِيرٍ قَالَ: «كَانَ لِي جَارٌ يَتَّبِعُ السُّلْطَانَ فَأَصَابَ مَالاً فَأَعَدَّ قِيَاناً وَكَانَ يَجْمَعُ الْجَمِيعَ إِلَيْهِ وَيَشْرَبُ الْمُسْكِرَ وَيُؤْذِينِي، فَشَكَوْتُهُ

إِلَى نَفْسِهِ غَيْرَ مَرَّةٍ، فَلَمْ يَنْتَهِ، فَلَمَّا أَنْ أَلْحَحْتُ عَلَيْهِ فَقَالَ لِي:

يَا هَذَا أَنَا رَجُلٌ مُبْتَلَى وَأَنْتَ رَجُلٌ مُعَافَى فَلَوْ عَرَضْتَنِي لِصَاحِبِكَ رَجَوْتُ أَنْ يُنْقِذَنِيَ اللَّهُ بِكَ.

فَوَقَعَ ذَلِكَ لَهُ فِي قَلْبِي، فَلَمَّا صِرْتُ إِلَى أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام ذَكَرْتُ لَهُ حَالَهُ فَقَالَ لِي: إِذَا رَجَعْتَ إِلَى الْكُوفَةِ سَيَأْتِيكَ فَقُلْ لَهُ يَقُولُ لَكَ جَعْفَرُ بْنُ مُحَمَّدٍ دَعْ مَا أَنْتَ عَلَيْهِ وَأَضْمَنُ لَكَ عَلَى اللَّهِ الْجَنَّةَ.

فَلَمَّا رَجَعْتُ إِلَى الْكُوفَةِ أَتَانِي فِي مَنْ أَتَى فَاحْتَبَسْتُهُ عِنْدِي حَتَّى خَلَا مَنْزِلِي ثُمَّ قُلْتُ لَهُ: يَا هَذَا إِنِّي ذَكَرْتُكَ لأَبِي عَبْدِ اللَّهِ جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدٍ الصَّادِقِ عليه السلام فَقَالَ لِي: إِذَا رَجَعْتَ إِلَى الْكُوفَةِ سَيَأْتِيكَ فَقُلْ لَهُ يَقُولُ لَكَ جَعْفَرُ بْنُ مُحَمَّدٍ دَعْ مَا أَنْتَ عَلَيْهِ وَأَضْمَنُ لَكَ عَلَى اللَّهِ الْجَنَّةَ.

قَالَ: فَبَكَى ثُمَّ قَالَ لِي: اللَّهِ لَقَدْ قَالَ لَكَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ هَذَا؟

قَالَ: فَحَلَفْتُ لَهُ أَنَّهُ قَدْ قَالَ لِي مَا قُلْتُ.

فَقَالَ لِي: حَسْبُكَ وَمَضَى، فَلَمَّا كَانَ بَعْدَ أَيَّامٍ بَعَثَ إِلَيَّ فَدَعَانِي وَإِذَا هُوَ خَلْفَ دَارِهِ عُرْيَانٌ، فَقَالَ لِي: يَا أَبَا بَصِيرٍ لا وَاللَّهِ مَا بَقِيَ فِي مَنْزِلِي شَيْءٌ إِلا وَقَدْ أَخْرَجْتُهُ وَأَنَا كَمَا تَرَى.

قَالَ: فَمَضَيْتُ إِلَى إِخْوَانِنَا فَجَمَعْتُ لَهُ مَا كَسَوْتُهُ بِهِ ثُمَّ لَمْ تَأْتِ عَلَيْهِ أَيَّامٌ يَسِيرَةٌ حَتَّى بَعَثَ إِلَيَّ أَنِّي عَلِيلٌ فَأْتِنِي فَجَعَلْتُ أَخْتَلِفُ إِلَيْهِ وَأُعَالِجُهُ حَتَّى نَزَلَ بِهِ الْمَوْتُ فَكُنْتُ عِنْدَهُ جَالِساً وَهُوَ يَجُودُ بِنَفْسِهِ فَغُشِيَ عَلَيْهِ غَشْيَةً ثُمَّ أَفَاقَ، فَقَالَ لِي: يَا أَبَا بَصِيرٍ قَدْ وَفَى صَاحِبُكَ لَنَا.

ثُمَّ قُبِضَ رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَيْهِ فَلَمَّا حَجَجْتُ أَتَيْتُ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام فَاسْتَأْذَنْتُ عَلَيْهِ فَلَمَّا دَخَلْتُ قَالَ لِيَ ابْتِدَاءً مِنْ دَاخِلِ الْبَيْتِ وَإِحْدَى رِجْلَيَّ فِي الصَّحْنِ وَالأُخْرَى فِي دِهْلِيزِ دَارِهِ: يَا أَبَا بَصِيرٍ قَدْ وَفَّيْنَا لِصَاحِبِكَ»[1].

وعلى السالك إلى الله سبحانه وتعالى أن يفكر في حاله، ويترك ذنبه حتى لا يتعاظم، ولا يوفق للتوبة لا سمح الله، من هنا عليه أن لا يغفل عن الذنب حتى يستغفر عنه بحرقة الندم، وبدموع الاستغفار، متمثلاً لما قاله أمير المؤمنين علي عليه السلام: «**غرسوا أشجار ذنوبهم نصب عيونهم وقلوبهم، وسقوها بمياه الندم، فأثمرت لهم السلامة وأعقبتهم الرضا والكرامة**»[2]، وصلوا إلى مقام الرضا عند الله ووصلوا إلى الكرامة.

وكيف لا يحصل التائب على كل هذا التوفيق؟ والتائب حبيب الله كما قال الله تعالى: ﴿**إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ**﴾[3].

ويقول أمير المؤمنين عليه السلام: «**توبوا إلى الله عز وجل وادخلوا في محبته فإنّ الله يحب التوابين ويحب المطهرين**»[4].

ومتى أحب الله العبد بدل سيئاته إلى حسنات. يقول الله تعالى: ﴿**إِلا**

(١) أصول الكافي ١: ٤٧٥

(٢) بحار الأنوار ٧٥: ٧٢.

(٣) البقرة: ٢٢.

(٤) بحار الأنوار ٦: ٢١.

مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ الله سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ الله غَفُورًا رَّحِيمًا﴾[1]، يقول الإمام الصادق عليه السلام: «هذه الآية فيكم ـ الذين يوالون أهل البيت عليهم السلام ـ إنه يؤتى بالمؤمن المذنب يوم القيامة حتى يوقف بين يدي الله عز وجل فيكون هو الذي يلي حسابه فيوقفه على سيئاته شيئاً شيئاً فيقول: عملت كذا في يوم كذا في ساعة كذا، فيقول: أعرف يا رب. قال: حتى يوقفه على سيئاته كلها، كل ذلك يقول: أعرف. فيقول: سترتها عليك في الدنيا، واغفرها لك اليوم، ثم يقول أبدلوها لعبدي حسنات»[2].

فافرح بفضل الله أيها العبد وأسرع قبل أن يأتيك الموت فلا تقبل التوبة منك: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوَءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَئِكَ يَتُوبُ اللّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللّهُ عَلِيماً حَكِيماً﴾[3].

---

(١) الفرقان: ٧٠.

(٢) بحار الأنوار ٢٤: ٣٨٧

(٣) النساء: ١٧.

تهذيب النفس وتزكيتها

إن أعظم غاية جاءت لأجلها الرسالات، والرسل هو تزكية الإنسان وجعله إنساناً يرتقي إلى مدراج الكمال، ولأن الله خلق هذه الخلق فهو يعرف ما يصلحه، وما يفسده. فشرع الأحكام لكي يأخذ بالنفس نحو خلاصها وعدم تعلقها بالدنيا فتخلد إلى الأرض، وتتبع الهوى فتهلِك وتهلَك.

ومن أعظم الأمور التي تهذب النفس هو الخضوع لله في الصلاة وإرغام النفس على إخراج الحقوق الشرعية من زكوات، وصدقات وخمس. ونحوه. لذلك قال الله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاَتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[1].

وتعتبر الزكاة وإخراج الحقوق مما يزكي النفس لأن البذل والعطاء على النفس أمر شاق، وذلك لأن النفس ترى أنها فقدت، وخسرت بهذه

---

(١) التوبة: ١٠٣.

البذل، وأن المال التي تعبت في جمعه، قد نقص منه وهذا يمثل لها خسارة كبيرة، فتبخل وتكون حريصة فتتصف بصفات ذميمة. لذا وجب تطهيرها من هذه الصفات بالبذل والاعتقاد بأن هذا المال سيزكوا بالبذل والعطاء، وهذا البذل سيؤدي إلى الزيادة في الرزق، وتحل البركة فيه وهو ذاته شكر لله: ﴿**لئن شكرتم لأزيدنكم**﴾[1].

وهذه تحتاج إلى جهاد مع النفس لأن النفس متى تعلقت بالمال صعب عليها إخراجه وهذا الحقيقة يبينها لنا موقف جرى في عهد النبي. فقد جاءه رجل فقير وطلب من النبي ﷺ أن يدعو له حتى يرزقه الله أموالاً، ويكون غنياً. ولما رزق المال، وكثر الحلال، ونزلت آية الصدقة بوجوب إخراج الزكاة، فأرسل رسول الله إليه جابي الزكاة رد ذلك الجابي وقال: أمحمد يشاركنا في أموالنا؟

فقد خسر في الامتحان الذي واجهه وذلك بسبب حرصه على المال الذي استودعه الله إياه. وكذلك يخطأ البعض حينما يتصور أنه متى ما تصدق تصدقا تطوعيا، فلا يجب عليه أن يخرج الزكاة، أو الخمس. فتراه يقول لك: إني تصدقت بأكثر من زكاتي، وخمسي!!

والحق خلاف ذلك أيضا فأن الله لم يأمره إلا بما فرض عليه فلو تصدق بكل ماله ولم يخرج الحق لم يرضَ الله عنه. وأنّ عليه أن يؤدي

---

(١) إبراهيم: ٧.

العبادة التي فرضها الله عليه كما هي من دون زيادة أو نقصان، فعن الإمام علي بن الحسين عليه السلام يقول: «**من عمل بما افترض الله عليه فهو من خير الناس**»[1].

ويقول عليه السلام ناقلاً لحديث قدسي، قال الله تعالى: «**ما تحبب إليّ عبدي بأحب مما افترضت عليه**»[2].

تصور خاطئ:

يتخيل البعض أنه متى ما أدى الحق الذي عليه، فأنه يرى لذلك ميزة على غيره، فهو المعطي، وهو الباذل، فيجب على من يستلم الحق، أو من يُعطى إليه الحق أن يقدره، ويحترمه فهو صاحب النعمة، واليد العليا. وهذا التفكير من أكبر الأخطاء التي يقع فيها الكثيرون وللأسف فهم يبطلون أعمالهم بالمن والأذى وقد نهو عنه. قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تُبْطِلُواْ صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأذَى﴾[3].

ومن الطريف ما ينقل إنه في بداية مرجعية البروجردي (رضوان الله عليه)، كتب أحد تجار طهران صكا (شيك) بملغ كبير وبعثه بيد أحد الأشخاص إلى السيد البروجردي وقال: إنه من الحقوق الشرعية.

---

(١) الكافي ٢: ٨١

(٢) وسائل الشيعة ١٥: ٢٥٩.

(٣) البقرة: ٢٦٤.

وكانت طريقة التسليم غير مؤدبة، فأخذ السيد البروجردي ذلك الشيك ورماه جانباً ثم قال للرجل: لا تكرر هذه الطريقة مرة أخرى، هل تظنون أنكم تمنون علينا بهذه الأموال؟

إن العلماء أشرف وأعز وأكرم من أن يهانوا بتسديدك للحقوق الشرعية إليهم بهذه الطريقة.

وإذا كنا ننتقد هذه الطريقة فما هي الطريقة المثلى التي يجب أن نتعامل بها؟

الجواب عنه:

أولاً: أن تكون نيتك في العطاء والبذل هي الله سبحانه وتعالى ورضاه لا غيره.

جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وآله فقال: «يا رسول الله علمني شيئاً إذا أنا فعلته أحبني الله من السماء وأحبني الناس في الأرض؟

فقال صلى الله عليه وآله: ارغب فيما عند الله يحبك الله، وازهد فيما عند الناس يحبك الناس»[1].

ثانياً: أن لا يكون العطاء فيه أذى أو تعالٍ في وقت البذل، و لا بعده. وأن يتبع طريقة أهل البيت عليهم السلام الذين بالغوا في ذلك بحيث انه إذا جاء من يسأل يقول له: أكتب حاجتك على الأرض وانصرف.. ومن ثم يعطيه

(١) ثواب الأعمال: ١٨٢.

الصدقه من غير أن يراه. ولما سُئل عن ذلك قال: «**حتى لا أرى ذل المسالة في وجه السائل**»[1].

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿**وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ**﴾[2]، ويقول النبي: «**ثلاثة لا يكلمهم الله .... المنان الذي لا يعطي شيئاً إلاّ بمنة ...**»[3] ويقول إمامنا الصادق عليه السلام: «**المنُّ يهدم الصنيعة**»[4].

ثالثاً: الحفاظ على كرامة السائل، أو الفقير حتى لو قدمت الزكاة أو الحقوق الشرعية بعنوان الهدية حتى لا تخدش كبرياءه ويبين نقصه وحاجته. يسأل سائل الإمام المعصوم يقول: هذا الفقير لا يحب أن يُعطى من الزكاة، فهل أستطيع أن أقدم له المال بعنوان هدية ليس من الزكاة؟ المعصوم يجيب: نعم لا تظهر له ذلك وأعقد نيتك على الزكاة.

رابعاً: لا تنتظر المدح من الناس أو الإشادة بعملك وبصدقاتك حتى لا تحس بخيبة في العطاء ثم تحرم من البذل في مرات أخر.

عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «**الرغبة في الدنيا تورث الغم والحزن، والزهد في الدنيا راحة القلب والبدن**»[5].

---

(١) مستدرك الوسائل ٧: ٢٣٨.

(٢) المدثر: ٦.

(٣) الخصال: ١٨٤.

(٤) الكافي ٤: ٢٢.

(٥) بحار الأنوار ٧٥: ٢٤٠.

وأما كيف تعرف أن صدقتك وأعمالك لله لا لغيره؟

متى لم تحب أن تمدح على صدقتك، أو لم تتأذى من عدم ذكر اسمك في المحافل في حين يذكر غيرك، ولا يضرك أن أشادوا بك أو لا حينها تكون قد عملت العمل لله: ﴿لاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَواْ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُواْ بِمَا لَمْ يَفْعَلُواْ فَلاَ تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِّنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[1].

ومتى كان العمل لله فأن الله سيضاعفه ويجازي العبد، ولن يترك الله أي إنسان يقدم خيرا من غير أن يحصل على فائدة، وجزاء لهذا العمل وهذا العطاء، فالله يقول: ﴿مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[2].

وإذا كان الحال هكذا فأن من الحمق أن يرغب إنسان في تكديس الأموال من غير تجارة وربح، وربح الله مضاعف، أو أن يلتفت إلى غير الله، فيضيع كل عطائه وصدقاته فتكون عليه حسرة ووبالا: ﴿فَلا صَدَّقَ وَلا صَلَّى﴾[3].

---

(١) آل عمران: ١٨٨.

(٢) البقرة: ٢٤٥.

(٣) القيامة: ٣١.

صلاة الليل

صلاة الليل هو الوقت الذي تثبت فيه حبك لله، فأنه وقت الخلوة مع الحبيب ولذلك تعهد الله سبحانه وتعالى بأن من يقوم في جوف الليل يعطيه ما لا يعطي غيره. فقد ترك لذيذ النوم، والدنيا وما فيها لكي يخلو بالله، فيكسوه الله نوراً من نوره، ولأن صلاة الليل لا يمكن أن تدرك حقيقتها إلا بملاحظة الآثار.

نستعرض رواية عن النبي الأعظم ﷺ حيث يقول: «**ما اتخذ الله إبراهيم خليلاً إلاّ لإطعام الطعام وصلاته في الليل والناس نيام**»[1] فكم تعرض إبراهيم عليه السلام بابتلاءات عظيمة، لا يمكن أن يتحملها إنسان مهما كان حتى أمر بذبح أبنه إسماعيل عليه السلام فاستجاب لأمر الله وكاد أن يذبح ولده، فعبر الله عنه بقوله: ﴿**إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلاء الْمُبِينُ**﴾[2].

ولكن نلاحظ أن هذا البلاء لم يكن هو السبب في جعل إبراهيم

---

(١) علل الشرائع ١: ٣٤.

(٢) الصافات: ١٠٦.

خليل الله، بل إطعام الطعام وصلاة الليل والناس نيام. وكون الإنسان خليلا لله تعني الشيء العظيم الذي لا يمكن لنا أن نتصوره. فإذا كان كذلك فلا سبيل إلى السالك إلى الله والراغب في المكاشفة الحضورية لجمال الحق إلا أن يمتطي ظهر الليل ليصل إلى الملكوت. ولذلك نجد أن الله من حبه لمحمد ﷺ يرشده إلى قيام الليل وينهاه أن يجعل الليل كله نوم ورقاد، ويرشده إلى العظمة التي سوف يحصل عليها من خلال إحياء الليل: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا﴾[١].

ولذلك كل التوفيقات التي يحصل عليها عباد الله لا تأتي إلا بعد قيام الليل والتهجد فيه، فأن له مقاماً محموداً. وهذا ما ينقله المحقق الأردبيلي عن نفسه عندما سُئل كيف وصلت إلى هذه المرتبة والمقام؟

يقول: بسبب أمر جرى لي، كنت مع زميلي في الغرفة، حيث اشترطت على صاحبي الذي معي في الغرفة إذا مرت علينا ظروف قاسية أريد منك أن لا تخبر أحدًا بما يمر علينا لا نريد أن نشك فقرنا وفاقتنا واحتياجنا إلاّ إلى الله، فعلمه بالحال يغني عن السؤال، أبرمنا هذا الاتفاق إلا أنّ صاحبي أخل بالاتفاق، في يوم من الأيام من شدة الحاجة، سأله أحد الأثرياء فأخل بالاتفاق قال: نحن في حالة صعبة، أعطاه الثري كمية

---

(١) الإسراء: ٧٩.

كبيرة من المال لنا فأصبح لدينا مال كثير، لما جاء بهذا المال قلت له: من أين لك المال؟ قال: من شدة الوضع لم استطع أن أصبر على الاتفاق المبرم بيني وبينك فشكوت حالي.

عندها قلت له: نفترق الآن ولن أرد عطاء الله، فالمال نصفه لي ونصفه لك، هذا لي بعَد عطية من الله أقبله، والنصف الآخر لك لكن لابد أن نفترق، أنت في حالك وفي سبيلك وأنا في حالي وفي سبيلي؛ لأنـي لا أريد أن أشكو حاجتي إلاّ إلى الله.

وفي تلك الليلة نام المقدس الأردبيلي لما جاء وقت صلاة الليل لم أجلس إلاّ وأنا محتلم وذهبت إلى الحمام، لكي أغتسل ولكن الوقت متأخر فهو في منتصف الليل ولا يوجد حمام مفتوح، والحمامات لا تفتح إلاّ في الفجر أو قبيل الفجر بقليل، وهذه المشكلة جعلتني أفكر في كيفية قيام الليل و التهجد فيه، كلمت المسئول عن الحمام، أن يفتح لي الباب، فرفض الحمامي أن يفتح الباب، وقال لي: لا نفتح إلاّ عند الفجر.

ولما رأيت أن الصلاة ستفوتني قررت من أجل أن يستجيب لي أن أبذل له مالاً، وكلما أغريته طمع أكثر حتى بذلت له كل المال الذي حصلت عليه عندها سمح لي بالدخول فاغتسلت ورجعت بعدها إلى غرفتي وصليت صلاة الليل، وما أن فرغت من صلاتي في تلك الليلة حتى تفضل الله تبارك وتعالى علي وفتح لي الأبواب المغلقة وجعل التوفيق رفيقًا لي أين ما توجهت.

فمتى ما تأملنا نجد أن هذا التوفيق لا يتوفر إلا من خلال توفر صفات كثيرة فيه يحبها الله سبحانه وتعالى وكأن الآية انطبقت عليه، قال تعالى: ﴿الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالأَسْحَارِ﴾[1].

ولا يكفي أن يقوم السالك إلى الله في جوف الليل بل لابد أن يكون مخلصا متشوقا إليه: ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ۞ فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاء بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[2].

وفي رواية عن الصادق عليه السلام يقول: «**لا تدع قيام الليل فإنّ المغبون من غُبن عن قيام الليل**»[3]. وعن النبي صلى الله عليه وآله: «**إنّ العبد إذا تخلى بسيده خلى بالله تبارك وتعالى في جوف الليل المظلم وناجاه أثبت الله نورًا في قلبه**».

فإذا كان الحال هكذا فان السالك لابد أن يرغب في لقاء الله، وينال منه كل ما يريد سواء لحوائج الدنيا، أو الآخرة.جعلنا الله وإياكم ممن ينال مقاما محمودا بحق محمد واله.

---

(١) آل عمران: ١٧.

(٢) السجدة: ١٦-١٧.

(٣) معاني الأخبار: ٣٤٢.

العز الحقيقي والعظمة

كل من في الكون يبحث عن العزة والبقاء بصورة تظهره بمظهر العزة، والعظمة. ولكن المشكلة الحقيقية هي عدم معرفة البعض الطريق الصحيح لكسب العزة التي يريدها. فيتخذ أسلوبا فبدل أن يقربه نحو العزة يجعله أقرب إلى الذلة. وذلك لأنه لا طريق للعزة حقيقة إلا عند الله سبحانه وتعالى، ولذلك يقول الله مناديا كل من يرغب في العزة: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُوْلَئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾[1].

والعزة في اللغة بمعنى المنعة. والمنعة بمعنى أن لا يثقل على الإنسان ما يصغر مقامه، وما يوجب له النقص والذلة فالعزة تقابل الذلة، والعزيز يقابل الذليل، فلا الذلة الظاهرية، ولا العزة الظاهرية هي التي ينشدها الإنسان في واقعه وإن طلب الوهم لا الحقيقة. فأنه يجد في نفسه

---

(١) فاطر: ١٠.

استصغارا، واحتقاراً لذاته حينما يشعر بأي ضعف، أو نقص يعتريه، لذلك نجد في دعاء النبي صلى الله عليه وآله في دعاء الجوشن: «**يا من هو رب بلا وزير يا من هو عزيز بلا ذل يا من هو غني بلا فقر**»[1]، فالغنى والعزة المطلقة لله تبارك وتعالى فقط. ويقول الإمام الحسين عليه السلام في دعاء عرفة: «**يا من خص نفسه بالسمو والرفعة وأولياءه بعزه يعتزون يا من جعلت له الملوك نير المذلة على أعناقها فهم من سطواته خائفون**»[2].

فالملوك والجبابرة يخافون من مكر الله تبارك وتعالى، والتغير الذي يطرأ على أحوالهم بحكمة الله تبارك وتعالى ترعبهم. فكم ملك فقد ملكه، وانقلب عليه وزرائه، وتغير عليه الحال وصار يبحث عن الملجأ والمخبأ بعد أن كان يتطاول عليه بأني ربكم الأعلى، أو لا أرى لكم إلا ما أرى، ولا أهديكم إلا سبيل الرشاد.

وكثير من الناس يتوهم أن المناصب التي يحصل عليها هي العز الذي ينشده. فمتى استطال وتمكن من ظواهر الحياة أخذه الغرور والتكبر، فصار لا يعبأ بمن هو أدنى منه مرتبة في الظاهر. بل لو علم أن عليا أفضل منه مقاما، وأكبر منه شأناً، فأن ما فيه من الغرور يجعله لا

---

(١) بحار الأنوار ٩١: ٣٩٤.

(٢) اقبال الأعمال ٢: ٨٠

يعترف لعلي بحقه، والله سبحانه وتعالى ضرب أمثلة رائعة في كتابه لمثل هذه الحالات كفرعون، وهامان، وقارون، وغيرهم من أجل أن يتعظ الناس، ولا يطلبون حالهم ولذلك قال تعالى حاكياً عن قارون: ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ۞ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلا يُلَقَّاهَا إِلا الصَّابِرُونَ﴾[1]، إلى أن قال: ﴿وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَن مَّنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾[2].

فانظر بعين البصيرة كيف أن قارون لم ينفعه عزه الظاهري، ولم تنفعه أمواله، وسلطانه، وتمنى الناس أن يكونوا مثله ولكن خسف الله به وعقابه. وأن العزة الحقيقية لله سبحانه وتعالى، يعطي من يشاء ويذل من يشاء: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[3].

---

(١) القصص: ٧٩ـ٨٠

(٢) القصص: ٨٢

(٣) آل عمران: ٢٦.

بل أن بعضهم يتطاول على حق الله، ويعتقد أن من حقه أن يحيي ويميت، كما حدث مع النمرود في قصة النبي إبراهيم عليه السلام، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رِبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ﴾[1].

وهذه العنجهية والغرور والتكبر واعتقاد العزة لا يخلو زمن من الأزمان لا يوجد فيه أشخاص يدعونها لأنفسهم، ومن ذلك ما حدث في زمن السيد أبو الحسن الاصفهاني (رضوان الله عليه) حيث كان هو مرجع الشيعة في زمانه.

بعد ثورة العشرين كان الإسهام الأكبر في تحرير الدولة من الإنكليز بيد العلماء، هم الذين ثاروا وجعلوا العراق مستقلة؛ ولكن هناك ضعف في نواحٍ متعددة مما جعل الإنكليز يحكمون من وراء الستار فنصبوا فيصلاً ملكًا على العراق، في أثناء ملك فيصل، زاره ملك الأردن عبد الله الأول، وكان من ضمن البروتكول أن يأتي هذا الملك الزائر ليسلم على كبير العلماء في النجف؛ لأنّ هؤلاء العلماء كان لهم صولة وجولة باعتبار أنهم هم الذين أوجدوا الاستقلال للعراق بالفعل، وكانت المرجعية العامة في ذلك الزمان للسيد أبي الحسن الأصفهاني، وكان حينذاك وزير التشريفات من الشيعة يسمونه باقر بلاط، وهو شخص متدين مؤمن، ففي

---

(١) البقرة: ٢٥٨.

أثناء ترتيب الزيارة رأى وزير التشريفات أنّ الملك عبد الله الذي جاء لزيارة الملك فيصل ملك العراق في حالة من الكبرياء وإظهار عظمة نفسه. فخاف وزير التشريفات أن تصدر من الملك بعض الكلمات أو بعض الأشياء التي لا تليق بالمرجعية، فقرر الذهاب مع الوفد الملكي إلى النجف حتى يهيأ الملك على كيفية مقابلة السيد أبو الحسن الأصفهاني. وفي الطريق شرع الوزير بتفهيم الملك مقام المرجعية الشيعية ودورها في العراق، واحترام الناس لها إلا أن الملك نهر الوزير بغطرسة بدعوى أنه شيعي، والشيعة يغالون في علمائهم ومراجعهم.

فلما سمعت جوابه احترت معه، كيف أعلمه فقلت له: كيف عرفت أننا نغالي في تقديسنا واحترامنا لهم؟

قال لي: أخبرني بعض المستشارين من الإنكليز، قالوا لي إن الشيعة عندهم غلو زائد في علمائهم بالخصوص هؤلاء الشخصيات الكبيرة التي على مستوى المرجعية وقد عرفت ذلك من الإنكليز.

لما رأيت ذلك شرعت في الطريق بالتوسل بأمير المؤمنين صلوات الله عليه لكل قلبي بأن لا يصدر من تبخرته وخيلائه ما يسيء إلى الموقف في أثناء اللقاء، ولا سيما أنه كاد أن يخرج من ثيابه بسبب إحساسه بالعظمة والكبرياء والغرور الذي لا حدّ له، فبكيت وأنا أتوسل بأمير المؤمنين وعندما وصلنا إلى النجف كان البرتوكول أن يدخل الملك من باب والعالم من باب آخر، ويلتقيان في وسط الطريق. وفعلا

دخلا فعانق كل واحد منهما الآخر ورحب بالثاني ترحيباً جميلاً ورائعاً يقول: فحمدت الله على أن الأمور جرت بخير.

فلما جلس التفت السيد أبي الحسن الأصفهاني إلى الملك عبد الله قال له: كيف تؤمنون الموارد المالية للدولة؟

قال: نحن دولة صغيرة والدول الصغيرة تعتمد على انجلترا. وهي تأمن لنا ما نحتاج، وهي دولة متحضرة، وشرع الملك في مدح الإنكليز. التفت له السيد أبي الحسن الأصفهاني فقال:

غير لائق بنا كمسلمين أن نعتمد على الدول وننسى الطاقات والقدرات التي نملكها، فما رأيك أيها الملك أن نتعاون أنا وأنت، أنت في ملكك وسلطانك وأنا بتوجيهي للناس لنحقق بذلك عظمة الأمة الإسلامية وزرع الثقة في الناس وأنهم قادرون على تحقيق أهدافهم، وأنا على استعداد لتقديم العون والمساعدة وبذل المال والنصيحة وتوجيه الناس لنعيد للإسلام والمسلمين العزة والكرامة.

فلما سمع الملك كلام السيد أخذ يستمع إليه بحكمة وروية. و انتهى اللقاء، وودع كل منهما الآخر. خرج السيد أبو الحسن الأصفهاني وخرج الملك، وفي طريق العودة التفت إليّ الملك وقال يا سيد باقر؟

قلت له: نعم صاحب الجلالة.

قال: كل ما قلته في هذا السيد فهو قليل في حقه وهو أعظم من ذلك بمراتب.

ونحن حينما نتأمل لماذا يتصاغر الحكام والطواغيت أمام العلماء؟

فإن الجواب: هو أن العالم عزته من عزة الله ومستمدة منه ولهذا يتواضع كل عظيم لعظمته. فلذلك يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «**من اعتز بغير الله أهلكه العز**»[1].

العزيز بغير الله ذليل، صلوات الله وسلامه عليك يا أمير المؤمنين. ما هو العز؟ إذا أردت أن تكون عزيزاً، يقول الإمام الصادق عليه السلام: «**العز أن تذل للحق إذا لزمك**»[2].

ولذلك حتى أولياء الله الذين ينالون من عزه وعظمته، فأن الله يبتليهم ببلاء، حتى لا يراهم الآخرون في مقام ليس لهم، ولذلك لما جاء سائل إلى الحسين بن روح يسأله عن السر الذي جعل الله يبتلي أنبياءه ورسوله والمعصومين من غير ذنب أذنبوه، أو معصية اقترفوها؟

الطريق إلى العزة الإلهية:

أولاً: طاعة الله سبحانه وتعالى وتحري رضاه.

يقول النبي صلى الله عليه وآله: «**إنّ ربكم يقول كل يوم أنا العزيز، فمن أراد عز الدارين فليطع العزيز**»[3].

---

(١) غرر الحكم: ٨٢١٧

(٢) بحار الأنوار ٧٥: ٢٢٨.

(٣) بحار الأنوار ٦٨: ١٢٠.

ثانياً: ترك المعصية.

يقول الإمام الصادق عليه السلام: «**من أراد عزاً بلا عشيرة، وغنى بلا مال وهيبة بلا سلطان، من ذل معصية الله إلى عز طاعته**»[1].

ثالثاً: أن ييأس الإنسان مما في أيدي الناس.

يقول الإمام الباقر عليه السلام: «**اليأس مما في أيدي الناس عز المؤمن في دينه**»[2].

رابعاً: أن يعطي النصفة من نفسه للآخرين.

يقول الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «**ألا أنه من ينصف الناس من نفسه لم يزده الله تبارك وتعالى إلاّ عزاً**»[3].

خامساً: عدم الزهد في الحق.

يقول الإمام العسكري عليه السلام: «**ما ترك الحق عزيز إلاّ ذل ولا أخذ به ذليل إلا عزّ**»[4].

وهناك أمور كثيرة نكتفي بهذا القدر والله اعلم واعز وأكرم.

---

(١) تحف العقول: ٣٧٦.

(٢) الكافي ٢: ١٤٩.

(٣) الكافي ٢: ١٤٤.

(٤) مستدرك سفينة البحار ٢: ٣٤٥.

آثار الأعمال ونتائجها

إن الأعمال التي يقوم بها الإنسان مهما كانت، لابد أن تكون لها نتائج وآثار، تنعكس إيجابا أو سلبا على صاحبها سواء كانت (الأعمال) بفعل أمر، أو سكوت عن أمر وعدم إتيانه. فمجرد ترك الشيء هو فعل ومن هنا تكون ترك المعاصي والسيئات فعل، ولهذا الترك آثار إيجابية تقع على الإنسان. ولأن الأفعال قد تنتهي بمجرد التوقف عنها، وقد تنسى بمجرد مضي الزمان عنها كان هناك ميزان آخر لبقاء الفعل وتخلده، هو إيجابية الفعل والتقرب به إلى الله وكونه عملاً طيباً طاهراً فإن قبول الله لهذا العمل أو ذاك، يعطيه ميزة البقاء؛ لأنه يغير سنخيته من الانقضاء بالانتهاء إلى الثبات حتى مع الانتهاء. وذلك لأن الله تكفل بحفظه وتربيته وتزكيته كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللّهَ لاَ يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾[1].

وأما لو كان العمل ظاهره حسن وباطنه سيئ فإن العمل سيزول بمجرد زوال صاحبه، وانقضائه ولذلك نلاحظ كثيرا من الناس يقومون

(١) النساء: ٤٠.

بالأعمال الجليلة الظاهرية ولكن سرعان ما يتلاشى كل أعمالهم وكأنهم لم يفعلوا شيئاً، وقد تكون من أبرز تلك الأعمال التي تكون بداعي الرياء: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تُبْطِلُواْ صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأذَى كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاء النَّاسِ وَلاَ يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لاَّ يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُواْ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾[1].

ومن هنا نعلم ما هو سر بقاء العمل وظهور الآثار الجليلة عليه ولذلك قد يتساءل البعض عن سر انتشار كتاب «مفاتيح الجنان» للشيخ عباس القمي المحقق (رضوان الله عليه) مع كثرة الكتب التي كتبت في الأدعية؟

إن السر يكمن في إخلاص هذا الرجل وإنكاره لذاته وعدم طلب شيء في عمله غير الله، حتى لو بان للآخرين أنه مقصر وهذا الذي يحدثنا به الشيخ (رضوان الله عليه) حيث يقول:

كان أبي يذهب إلى مسجد قريب من البيت يصلي ويستمع إلى الخطبة، أو المحاضرة التي تلقى بعد الصلاة، وكان الشيخ يقرأ قصصا من كتاب "منازل الآخرة" التي كتبته وألفته ولكن أبي لا يعلم أن هذا الكتاب كتاب ولده. فكان والدي كلما جاء إلى المنزل قال لي: يا ليتك تكتب كتابا كالكتاب الذي يقرأ منه ذلك الشيخ. أو يا ليتك تكون مثل

(١) البقرة: ٢٦٤.

هذا الشيخ الذي يحدثنا.

لما سمعت من أبي هذه الكلمات كدت أقول له: يا أبتي أن الشيخ يقرأ من كتابي. ولكني قلت في نفسي: لا يهم أن عرف والدي ذلك أو لم يعرف. المهم ان يقبل الله مني ذلك العمل، ولذلك سكت ولم أقل شيئاً، وكلما أعاد لي القول طلبت منه أن يشملني بدعائه من أجل أن يوفقني الله .

فلا يكفي أن يؤدي الإنسان العمل بإخلاص مرة أو مرتين وبعدها يريد أن تظهر الآثار الجليلة والأمور العجيبة على فعله كلا. بل يجب عليه أن يداوم على العمل ويستمر ولا يتوقف مهما كان، وأقلها كما جاءت به الرواية سنة كاملة ثم يقطع إن لم يرَ أثراً لفعله.

عن النبي ﷺ: «**إذا جاء أحدكم بعمل فليداوم عليه سنة**».

ولذلك نرى أن هناك بعض الأدعية والأذكار يطالب ممن يريد أن يعملها أن يستمر فيها أياماً، مثلاً أسبوعاً، أو أربعين يوماً، أو أكثر حتى يستجيب الله منه ويأذن بظهور الآثار عليه. كما في دعاء «سيفي الصغير» تقول: «**رب أدخلني في لجة بحر أحديتك، وطمطام يم وحدانيتك وقوني بقوة سطوة سلطان فردانيتك، حتى أخرج إلى فضاء سعة رحمتك، وفي وجهي لمعات برق القرب من آثار حمايتك ميهبا بهيبتك..**».

فتأمل كلمة (أخرج إلى فضاء.. وفي وجهي..آثار) فهذه تعني أن يكون الإنسان قريبا من الله متجها إليه، ثم يحصل على أثر القرب و لا يكون هذه القرب إلا بالعمل الصالح ولا تظهر النتائج إلا بالمداومة عليه لذا يجب على السالك إلى الله أن لا يمل التقرب والقرب، ولا يكل من الدعاء والتوسل حتى يكون قريبا من الله ومن أبرز مصاديق ذلك ما نقله العالم مجتبى بلوجيان في كتابه «جزاء الأعمال» يقول:

سمعت أستاذي العزيزي الحاج المجتهدي انه قال: لقد ابتلى الميرزا النائيني (أعلى الله مقامه الشريف) بألم في رجله ولم ينفع مع ذلك الألم أي علاج...

ويوما التقى شيخ عباس القمي وقال له المحقق النائيني: أدع لي يا جناب الشيخ لعل الله سبحانه وتعالى يسمع دعاءك ويشفيني مما أنا فيه.

فقال المحدث القمي: أيها الميرزا الكريم: أنا لست على يقين من أنني لم أعص الله سبحانه وتعالى بلساني، لذا فإني لا أدعو لك به، ولكن عندي يقين بأني لم أرتكب ذنباً، أو معصية بيدي هذه. فقد أفنيت هذه الحقبة من عمري في كتابة روايات وأحاديث رسول الله صلى الله عليه وآله وأهل البيت عليهم السلام وإذا لم تشفك يدي هذه فإني سأقطعها.

فوضع يده الشريفة على رجل الميرزا النائيني فبرئت رجله وشفاه الله من تلك الآلام التي كان يعاني منها.

وما كان ذلك الأثر السريع ليد الشيخ عباس القمي إلا بإخلاصه

وعمله الدؤوب في طاعة الله، وصدق الله حيث قال:

﴿وَالْعَصْرِ ۞ إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۞ إِلا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾[1].

فكل الناس في خسر مبين، وضياع إلا الذين عملوا الصالحات وتركوا تعلقاتهم المادية وربطوها بالآخرة فأنتجت نتاجا طيبا يظهر أثره في الدنيا قبل الآخرة. أسال الله أن يجعلنا وإياكم منهم بحق محمد واله.

---

(١) العصر: ١ـ٣.

لقمة الحلال

يعتبر الإنسان نباتا من الأرض أنبته الله أي أخرجه منها، فقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الأَرْضِ نَبَاتاً﴾[1].

ولاشك أن هذا الإنسان يأخذ خاصية الأرض بما فيها من معادن وغيره وهذا واضح بأدنى تأمل. ومن أحكام هذه الأرض أنه كلما كانت أرضاً طيبة أي جيدة كان نباتها وزرعها حسناً وطيباً ولذلك قال الله تعالى: ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لاَ يَخْرُجُ إِلاَّ نَكِدًا كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾[2].

وانطلاقا من هذه الحقيقة يتقوم جسد الإنسان في صلاحه وفساده وأنه متى صلحت الأرضية التي تحمل هذه الروح تكون شفافة لا يكدرها شيء، فتنطلق في عالم الملكوت، ومن هنا حرم الله على الإنسان بعض المحرمات لما لها من ضرر على نفس البدن والروح فقال تعالى:

---

(١) نوح: ١٧.

(٢) الأعراف: ٥٨.

﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِاللّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾[1].

ومن أعظم الضرر على الإنسان هو لقمة الحرام حيث تحرمه من العروج إلى عالم الملكوت و لذلك نهى رسول الله ﷺ عن كل طعام محرم، أو فيه شبهة تحريم. قال النبي ﷺ: «**من أكل لقمة حرام لم يقبل له صلاة أربعين ليلة**»[2]. ويقول ﷺ: «**إنّ الله حرم الجنة جسداً غُذي بحرام**»[3]، أي أن الجسد الذي يكون غذاءه حراما لا يمكن أن يدخل الجنة بهذا الجسد لأنه نبات خبث، والخبث لا يكون في الجنة، لذا من شروط التوبة أن يذيب اللحم والشحم الذي نبت على العظم من الطعام المحرم، فيجعله ينموا من جديد بالطعام المحلل وليست المسالة هنا فقط. بل أن تأثير اللقمة المحرمة كبير جداً، سواء كان في الأعمال العبادية، كما قال رسول الله ﷺ: «**إذا وقعت اللقمة من حرام في جوف العبد لعنه كل ملك في السماوات والأرض**»[4].

---

(١) الأعراف: ٣٣.

(٢) عدة الداعي: ٣٣.

(٣) كنز العمال ٤: ١٤.

(٤) بحار الأنوار ١٠٠: ١٢.

وعنه ﷺ: «**العبادة مع أكل الحرام كالبناء على الرمل**»[1]، أو حتى في النشأ والتربية فإننا نعلم إن الإنسان يؤثر فيه خاصية الجنينات وهذه الجينات هي عناصر، وكل عنصر لم يكن صحيحا يؤثر تأثيرا سلبيا. وهذه العناصر تتغذى من الطعام لذلك كان: «**الكاد على عياله من الحلال كالمجاهد في سبيل الله**»[2].

وأما والعياذ بالله لو كان طعامه ومأكله من الحرام فأنه لا يؤثر في الإنسان نفسه بل حتى في عقبه وعياله ولو بعد حين، فعن أمير المؤمنين: «**إنّ الرجل إذا أصاب مالاً من حرام لن يقبل منه حج ولا عمرة ولا صلة رحم حتى أنه يفسد الفرج**»[3].

بل من آثار لقمة الحرام أنها تصم الأسماع عن سماع الحق والتعقل به كما قال الإمام الحسين عليه السلام في كربلاء عن جيش ابن زياد: «**أن لقمة الحرام ملأت بطونهم**» فصدهم ذلك عن الحق.

وكلما كان الإنسان متحفظا في مأكله وطعامه كان نباته حسنا وأعظم شيء يذكر في هذا المجال قصة المحقق الاردبيلي، فهو نتاج لقمة الحلال، وطهارة النطفة التي تعتبر أساساً لمخلوق جيد. فقد جاء

---

(١) عدة الداعي: ١٤١.

(٢) من لا يحضره الفقيه ٢: ١٦٨.

(٣) وسائل الشيعة ١٢: ٦١.

والده إلى قناة يملأ قربته ماءً فرأى تفاحة تجري على الماء، فأخذها وأكلها، ولكنه وقف فجأة يفكر، كيف أكل التفاحة ولم يستأذن من صاحبها، فأخذ يعاتب نفسه على هذا التصرف الذي لا ينبغي صدوره منه،ولذا فكر في أن يمشي باتجاه معاكس لجريان الماء لعله يصل إلى صاحب التفاحة فيسترضيه على أكله لها، مشى مسافة حتى وصل إلى مزرعة التفاح فلقى صاحب المزرعة وكان عليه سيماء الصالحين فقال له:

إن تفاحة كانت تجري على الماء في القناة فأخذتها وأكلتها أرجوك إرضَ عني!

أجابه الرجل: كلا لن أرضى عنك.

قال: أعطيك ثمنها. قال: لا

وبعد الإصرار والإلحاح الشديدين وافق صاحب المزرعة أن يرضَ عنه ولكن بشرط واحد! قال الشاب: فما هو الشرط؟

أجاب الرجل: عندي ابنة عمياء، صماء، خرساء، مشلولة الأرجل إذا وافقت أن تتزوجها أرضَ عنك وإلا فلا!

فلما رأى الشاب أنه لا سبيل إلى جلب رضاه إلا بالموافقة على هذا الشرط الصعب، دعاه إيمانه إلى الموافقة. وهو يندب حظه، ويسترجع[1] على هذا البلاء العظيم جراء تفاحة. مضت الأمور كما يريد أبو البنت

---

(١) يسترجع: أي يقول إنا لله وإنا إليه راجعون.

وقرأ العقد وتزوج الشاب، وعند دخوله على عروسه فؤجيء بعروس ذات قامة ممشوقة وهي في غاية الجمال، أنها مواصفات نقيضة للمواصفات التي ذكرها له أبوها. فخرج الشاب مسرعا (خشية حدوث خطأ في الزواج فتحدث له مشكلة أخرى) وإذا بالرجل ينتظره مبتسماً قال: خيراً إلى أين؟

قال الشاب: إن البنت التي ذكرت لي وصفها ليست هي العروس التي دخلت عليها؟!

أجابه الرجل: إنها هي. لأني حينما وجدتك جاداً في جلب رضاي لأكلك تفاحة خرجت عن حيازتي، وسقطت في الماء وأخذها الماء مسافة بعيدة وجئت تطلب الحل، علمت إنك الشاب الذي كنت انتظره منذ أمد لأزوجه ابنتي الصالحة هذه. ولقد قلت لك: إنها عمياء خرساء فلأنها لم تنظر ولم تكلم رجلا أجنبيا قط. وقلت لك إنها مشلولة فلأنها لم تخرج من المنزل وتدور في الطرق، وإنها صماء فلأنها لم تستمع إلى غيبة أو غناء، أليست هذه فتاة مؤمنة يستحقها شاب مثلك؟

وكان ثمار هذا الزواج المبارك ولادة إنسان اشتهر في ورعه وتقواه وقربه إلى الله وحبه للنبي صلى الله عليه وآله ومودته العميقة لأهل البيت عليهم السلام وعرف عنه كثرة ملاقاته لمولانا صاحب العصر والزمان وهو المقدس الجليل الشيخ أحمد الاردبيلي.

ولكي نعلم كيف صار الشيخ المقدس هكذا لننظر إلى أمه ماذا

تقول حينما سُئلت كيف صار ولدها الشيخ بهذا المقام؟ فأجابت: أني لم آكل في حياتي لقمة مشبوهة، وقبل إرضاع طفلي كنت دائمة أسبغ الوضوء، ولم انظر إلى رجل أجنبي قط، وسعيت في تربية طفلي أن أراعي النظافة والطهارة، وأن يصاحب الأولاد الصالحين.

ونحن حينما نتأمل هذه الحادثة العظيمة نعرف كيف يكون أثر لقمة الحلال وكيف يؤثر الاجتناب عن المحرمات، وردع النفس عن الاقتحام في الشبهات والمحظورات. فقد ورد عن النبي ﷺ: «**ترك لقمة الحرام أحب إلى الله من صلاة ألفي ركعة تطوعًا**»[1].

لما سأل الإمام أمير المؤمنين عليه السلام النبي ﷺ قال: «**ما أفضل الأعمال؟ قال: الورع عن محارم الله**»[2]، ويقول ﷺ: «**لا يقدر رجل على حرام ثم يدعه ليس به إلاّ مخافة الله إلاّ أبدله الله في عاجل الدنيا قبل الآخرة**»[3].

(١) عدة الداعي: ٦٥.

(٢) بحار الأنوار ٤٢: ١٩٠.

(٣) كنز العمال ١٥: ٧٨٧.

الحلف بالله كاذباً

القسم من الأمور العظيمة التي يعتني بها العقلاء فإن المُقسَم عليه يعتبر معظماً،ومقدساً عند المقسِم به، ولذلك فمتى يقسم الإنسان فانه بذلك يثبت صدقه، أو يدفع كذبه، أو يرفع عنه حداً، أو يثبت حداً، كما لو أدعى الزوج أنه رأى زوجته تزني، فيحلف بالله خمس مرات، وكذا المرأة أيضاً تُقسم لتدفع عن نفسها الحد. إلى غير ذلك من الأمور التي لا تخفى على أحد.

ولذلك كان القسم أمراً عظيماً لا يقال على الصغائر من الأمور، بل وحتى على الكبائر. لا يذكر إلا إذا دعت الحاجة. وأعظم قسم وحلف هو القسم والحلف بالله سبحانه وتعالى. فلا يجوز أن يحلف بالله كاذباً ويكره أن يقسم محقاً أيضاً قال تعالى: ﴿وَلاَ تَجْعَلُواْ اللّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَانِكُمْ أَن تَبَرُّواْ وَتَتَّقُواْ وَتُصْلِحُواْ بَيْنَ النَّاسِ وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[1].

---

(١) البقرة: ٢٢٤.

وقد روي عن النبي الأعظم ﷺ أنه قال: «**من حلف على يمين وهو يعلم أنه كاذب فقد بارز الله بالمحاربة، وأنّ اليمين الكاذبة تذر الديار بلاقع من أهلها وتورث الفقر في العقب**»[1].

ومن هنا يجب على الإنسان أن لا يجعل الحلف بالله وسيلة رائجة في ترويج بضاعته، وأفكاره مهما كانت بل ينزه الله عن كل ذكر إلا ذكره ومجده وتسبيحه، سبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيراً. ومتى لم يرتدع الإنسان عن القسم كاذباً، فأنه قد بارز الله بالمحاربة لأنه استهان بالله وبحرمته وعظمته وهذه الاستهانة هي المحاربة لله. ومتى حارب الإنسان ربه فقد وكله إلى نفسه وخذله خذلاناً مبيناً، وهذا الذي حدث مع عبد الله بن مصعب الزبيري[1]. فقد نقل الاصفهاني قصته، ونقلها العلامة الحجة السيد هاشم الرسولي المحلاتي في كتابه «عقاب الذنوب».

هذه القصة هي أنّ يحيى بن عبد الله بن الحسن من أحفاد الإمام الحسن عليه السلام، وكان من رواة الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام وروى أحاديث متعددة عن إمامنا الصادق عليه السلام ومن المقربين للإمام. لما ثار

---

(١) بحار الأنوار ١٠١: ٢٨٣.

(٢) كان عبد الله بن مصعب من الذين يبغضون يحيى ويبغض الأئمة عليهم السلام. فكان في أوائل أمره مع الحسنين يقاتل معهم ويشيد بهم، وينشأ الأشعار لكن سوء العاقبة في آخر حياته جعلته يتبدل حاله وأصبح من أعداء أبناء الإمام الحسن عليه السلام.

الحسين بن علي شهيد فخر في عصر الهادي العباسي خرج يحيى لمناصرة شهيد فخر وبعْد استشهاد الحسين بن علي شهيد فخر توارى عن الأنظار لأنّه السلطة العباسية كانت تطارده وتطالب به. وظل كذلك لا يراه أحد ولا يعلم بخبره حتى وصل إلى الديلم في عهد الرشيد، والتف الناس حوله وأصبحت له شوكة يستطيع أن يناهض سلطة الرشيد إلا إنها لم تكن بذاك القوة العظيمة التي يعتمد عليها، وفي نفس الوقت كان يخاف من نمو حركته فلذلك عقد صلحا مع الرشيد بعد أن أجرى مفاوضات مع الفضل بن يحيى البرمكي وحصل على بعض الامتيازات مثل العيش بأمان وأن لا يتعرض له أحد بأي مضايقة، فأُبرم الصلح ووقعت الوثيقة وكُتب فيها إمضاء له بالأمان، إلاّ أنّ الرشيد كان يتربص به وينتظر الفرصة السانحة من أي طرف يشي به ـ من أجل التخلص منه ـ ولولا خوفه من الظهور بمظهر الخائن لو قتل يحي بن عبد الله لقتله وكذا تسقط مهابته بين الناس، لينهي أمر هذا العالم الذي هو يحيى بن عبد الله بن الحسن. وهذا ما حدث فعلاً، ففي مرة من المرات جاء عبد الله بن مصعب الزبيري وهو من أحفاد الزبير إلى الرشيد وأخبره أنّ يحيى بن عبد الله طلب منه البيعة، قال: هذا يحيى بن عبد الله طلب منِّي أن أبايعه.

فلم يعجب هذا القول الرشيد بل طلب منه أن يواجه يحيي بن عبد الله بهذا الأمر فوافق على ذلك، فجمع الرشيد بينهما، وفي هذا الاجتماع قال عبد الله بن مصعب في حضرة الرشيد: نعم يا أمير المؤمنين هذا

دعاني إلى بيعته.

فالتفت يحيي بن عبد الله إلى الرشيد قائلاً: أتصدق هذا وتستنصحه وهو ابن عبد الله بن الزبير الذي أدخل أباك (جده وولده الشعب وأضرم عليهم النار حتى خلصه أبو عبد الله الجدلي صاحب علي ابن أبي طالب)، يقول نحن عندنا أصحاب جدي أمير المؤمنين هم الذين خلصوا من جد هذا، وهو الذي بقي أربعين جمعة يقول له هذا جده هذا، من جده. ثم أردف بقوله: فو الله إنّ عداوة هذا يا أمير المؤمنين لنا جميعاً بمنزلة سواء، هو يعاديني ويعاديك، لكنه قوي عليّ بك، وضعفت عنه فتقرب بي إليك ليظفر منك بما يريد، إذْ لم يقدر عليّ مثله منك، وما ينبغي لك أن تسوغه ذلك فِيَّ، فإنّ معاوية بن أبي سفيان وهو أبعد نسباً منك إليّ ذكر يوماً الحسن بن علي فسفَّهه فساعده عبد الله بن الزبير على ذلك فزجره معاوية وانتهره، فقال الزبير: إنّما ساعدتك يا أمير المؤمنين فقال معاوية: إنّ الحسن لحمي آكله ولا أرضى لأحد أن يأكله، وبيننا روابط نحن وإياك، فقال يحيى يا أمير المؤمنين ما أنصفنا المهم فرفع يحيى رأسه إليه، ولم يكلم عبد الله ابن الزبير ولم يكن يكلمه قبل ذلك وإنما كان يخاطب الرشيد بجوابه لكلام عبد الله لكنّ عبد الله بن مصعب كان يلح على الرشيد بأنّ ما أخبره به هو الحق.

فالتفت يحيى فقال للرشيد: ومع هذا فهذا هو الذي خرج مع أخي على أبيك وهو القائل أبياتاً في ذمكم بني العباس.

قال الرشيد: وماذا قال فينا؟

قال: هكذا ذكر أبياتاً:

إنـا لنأمـل أن ترتـد ألفتنـا بعـد	التـــدابر والبغـــضاء والإحـــن
حتى يثاب على الإحسان محسنا	ويأمـل الخائـث المـأخوذ بالـدم
وتنقـضي دولـة أحكـام قادتهـا	فينا كأحكام قوم عابـدي وثـن
فطالما قد بروا بـالجور أعظمنـا	بري الصناع قداح النبع للستن
قومـوا ببيعـتكم نـنهض بطاعتنـا	إنّ الخلافة فيكم يا بني الحسن

فلما سمع هذا الرشيد هذا غضب غضبًا شديدًا، قال:

يأتي ويشتكي عليك وهو قائل هذه الأبيات في ذمنا وإننا عبـدة وثـن وأننا ظلمة وأصحاب جور.

فابتدأ عبد الله بن مصعب الزبيري يحلف بالله ويقول:

والله والذي لا إلـه إلا هـو، والله العظـيم البـر الـرحيم، ويقـسم أقـسام مغلظة في الله أنه لم يقل هذه الأبيات وإنّ هذا الشعر هو لغيره لشاعر يقال له شبيب.

ردّ عليه يحيى قائلاً: والله يا أمير المؤمنين مـا قالـه غيـره ومـا حلفـت بالله كاذبًا ولا صادقًا وإنّ الله إذا مجّده العبد في يمينـه كمـا كـان يحلـف هذا، يحلف بالله ممجدًا له، فالله تبارك وتعالى يستحي أن يعاقبه وإنْ كان كاذبًا.

قال له الرشيد: إذن ما تعني؟

قال: هذا لا يعاقب لأنّه كان يحلف ويقول والله الذي لا إله إلاّ هو والله الذي هو الحق المبين يعني يمجد الباري تبارك وتعالى فإذا أقسم بالله ممجدًا للباري، الباري يستحي أن يعاقبه، أما إذا كان صادقًا في قوله أنا أجعله يقسم بقسم ما أقسم به أحد كاذباً إلاّ عُجلت له العقوبة في الدنيا قبل الآخرة.

قال الرشيد: حلِّفه.

قال له: دعه يحلف، قل: برئت من حول الله وقوته واعتصمت بحولي وقوتي وتقلدت الحول والقوة من دون الله استكباراً على الله واستغناءً عنه واستعلاءً عليه إنْ كنت قد قلت هذا الشيء.

سمع عبد الله بن معصب هذا القسم فارتبك، وامتنع عن القسم بذلك. فغضب الرشيد وقال للفضل بن الربيع: ما له لا يقسم؟ إذا كان صادقاً لابد أن يقسم.

ثم قال الرشيد هذا طيلساني على تاج الملك وهذه فيها لو حلفني أنها لي لحلفت، يقول أي واحد كان له الحق ويريد أحد يأتي يقول له اقسم أنّ هذا لك لابد أن يقسم فإذا أنت لم تقل هذا الشعر وحَلفت أنك لم تقله لماذا تخاف؟ اقسم، فرفس الفضل بن الربيعة عبد الله بن مصعب برجله وصاح فيه: احلف ويحك، فحلف باليمين وهو يرتعد، فضرب يحيى بين كتفيه ضربة، فقال له: يا بن مصعب قطعت والله عمرك، والله لا تفلح بعدها.

فما برح من موضعه حتى أصابه الجذام، ومات في اليوم الثالث وعند دفنه حضر الفضل بن الربيع جنازته ومشى الناس معه فلما جاءوا به إلى القبر، وضعوه في لحده وجُعل اللبن في القبر فوقه، انخسف القبر فهوى به حتى غاب عن أعين الناس فلم يروا قرارًا للقبر؛ لأنّ القبر أصبح مثل هاوية وخرجت منه غبرة عظيمة، فصاح الفضل التراب التراب فكان الناس يطرحون التراب وهو يهوي في القبر ودُعي بأحمال الشوك فطُرحت في هذا القبر من غير فائدة، فأُمر حينئذ بسقف القبر بخشب وانصرف الناس عنه، فكان الرشيد بعْد ذلك يقول للفضل: أرأيت يا عباسي ما أسرع ما أجيب ليحيى في مصعب، كيف الله عجله عقوبته؟

ونحن من هذه الحادثة يجب علينا أن نتعلم أمرا مهما وهو أن لا نُقدم على الكذب سواء من أجل كسب حق، أو تخلص من بلاء فلربما أوقع القسم بلاءً أعظم مما تخاف منه.

إطالة العمر

من الأمور التي شغلت الإنسان قديما وحديثا هي مسألة إطالة العمر فرغبة الإنسان في الخلود، وخوفه من الموت والفناء، يجعله يسعى بكل ما أوتي من قوة لتحقيق هذه الرغبة. فيبذل الملايين في صدد هذه الأبحاث إلا أنها تبوء بالفشل. ولا تنتج هذه الأبحاث إلا توصيات معينة في الوقاية والأكل لتحقيق السلامة وغيرها، ويكون نظرها مقتصراً فقط على الجانب المادي، متغافلين عن الجوانب المعنوية. في حين أن الجانب المعنوي له تأثير كبير جدا في هذه المسائل، فقد تناولتها المباحث العلمية، والروايات بشكل مفصل، واعتنت بها؛ لأنها تحقق رغبة الناس. ولذلك وجهت المؤمن إلى أمور متى ما قام بها أطال الله في عمره، ومن هذه الأمور الصدقة، وصلة الرحم، وترك الذنوب. وفي المقابل هناك أمور تعجل الفناء، وتناولتها الروايات أيضاً بالحديث.

فعن الإمام زين العابدين عليه السلام قوله: «**والذنوب التي تعجل الفناء قطيعة الرحم واليمين الفاجرة والأقوال الكاذبة و الزنا وسد طرق**

المسلمين وادعاء الإمامة بغير حق»[1].

ويعتبر قطيعة الرحم، وصلة الرحم من أهم الأمور الموجبة لنقصان العمر وطوله، فعن الإمام الصادق عليه السلام قال: «**ما نعلم شيئاً يزيد في العمر إلاّ صلة الرحم**»[2].

بل في تفسير الآية: ﴿**الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ**﴾[3].

إن الذي أُمر بوصله وعدم قطعه هو صلة الرحم. فأنظر إلى هذا الأمر وأهميته القصوى على الفرد في حياته الدنيوية والبرزخية، لذلك روي إن علياً عليه السلام استعاذة: «أعوذ بالله من الذنوب التي تعجل الفناء.

فقام إليه رجل من الخوارج عندما سمع الإمام عليه السلام يستعيذ وقال: يا أمير المؤمنين، أو تكون ذنوب تعجل الفناء؟

فقال الإمام عليه السلام: نعم ويلك قطيعة الرحم»[4].

ومن الطريف ما ينقل أن المنصور بعث إلى الإمام الصادق عليه السلام فلماء جاءه الإمام الصادق عليه السلام أمر بأن يأتي ولداه وهما محمد والمهدي

(١) معاني الأخبار: ٢٧١.

(٢) الكافي ٢: ١٥٢.

(٣) البقرة: ٢٧.

(٤) الكافي ٢: ٣٤٨.

فجاء ولداه وطلب من الإمام الصادق عليه السلام أن يحدثه في صلة الرحم وما لصلة الرحم من الآثار، قال الإمام الصادق عليه السلام حدثني أبي عن أبيه عن جده عن علي عليه السلام قال علي: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «إنّ الرجل ليصل رحمه وقد بقي من عمره ثلاث سنين فيصيرها الله ثلاثين سنة يجعل له بكل سنة عشر سنوات، ويقطعها وقد بقي من عمره ثلاثون سنة فيصيرها الله ثلاث سنين، ثم قال الإمام الصادق عليه السلام يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب. قال له المنصور: ما أريد هذا الحديث أريد حديث آخر.

فقال الإمام الصادق عليه السلام: حدثني أبي عن جده عن علي عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: صلة الرحم تعمر الديار وتزيد في الأعمار وإنْ كان أهلها غير أخيار.

فقال المنصور للإمام الصادق عليه السلام: يا أبا عبد الله هذا أيضًا حسن ولكن لا أريد هذا الحديث، أريد حديث آخر.

فقال الإمام الصادق عليه السلام: حدثني أبي عن أبيه عن جده عن علي عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: صلة الرحم تهون الحساب وتقي ميتة السوء.

قال المنصور: نعم، هذا أردت»[١].

---

(١) مستدرك الوسائل ١٥: ٢٤١.

ولكي نرَ سوء عاقبة قطع صلة الرحم، نورد هذه الحادثة التي ذكرها الكافي:

جاء رجل إلى الإمام الصادق عليه السلام فقال له: «إنّ أخوتي وبني عمي قد ضيقوا عليّ الدار وألجؤوني منها إلى بيت ولو تكلمت أخذت ما بأيديهم أوأفعل كما يفعلون، ولكن لإيماني ودماثة أخلاقي يرون أنّ هذا ضعف في شخيصتي فيضيقون عليّ. ردّ عليه الإمام الصادق عليه السلام بقوله: اصبر فإنّ الله سيجعل لك فرجًا. قال فانصرفت، ووقع الوباء في سنة ١٣١ هـ فماتوا والله كلهم، قال: فخرجت فلما دخلت على الإمام الصادق عليه السلام قال: ما حال أهل بيتك؟

قال: فقلت للإمام عليه السلام: قد ماتوا والله كلهم، انتهى أمرهم فما بقي منهم أحد.

فقال الإمام عليه السلام: هو بما صنعوا بك وبعقوقهم إياك وقطع رحمهم وبتروا ثم قال لي: أتحب أنهم بقوا وأنهم ضيقوا عليك، قال: قلت أي والله»[1].

ولا شك أن لصلة الأرحام من الآثار العظيمة التي لا تحصى ويكفي أن تعلم أنها وصية رسول الله فقد قال صلى الله عليه وآله: «**أوصي الشاهد من أمتي والغائب، ومن في أصلاب الرجال وأرحام النساء إلى يوم القيامة**

---

(١) الكافي ٢: ٣٤٧.

أن يصل الرحم وإنْ كانت منه على مسيرة سنة فإنّ ذلك من الدين»[1].

فهل يا ترى تكون هذه الوصية والحرص من الرسول ﷺ لأمر عادٍ، أو لا قيمة له؟ ومع تطور الزمان لم يبقَ لأحد حجة في عدم صلة رحمه، ولا سيما أن المواصلات والتكنولوجيا الحديثة قد سهلت المسافات، وقربت البعيد، فلا عذر لأحد في القطيعة. فدع عنك وساوس الشيطان وحمية الجاهلية، والتكبر، والغرور، وصل رحمك غنياً كان أو فقيراً، كبيراً كان أو صغيراً، قريباً كان أو بعيداً.

---

(١) الكافي ٢: ١٥١.

الوفاء من صفات السالكين

يعتبر الوفاء من الأمور التي أمر الله عباده أن يتحلوا به، ولهذا يعدّ من الصفات الحميدة والممدوحة، ويذم من يتصف بخلافها كالخيانة. ولذلك قال الله تعالى: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾[1].

والوفاء لله أن تشكر الله ولمن أنعم عليك ومن أعظم النعم التي يجب أن يشكرها العبد هو شكره لوالديه قال تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾[2]. وهذا الشكر لا يخص فترة حياتهما فقط بل حتى بعد مماتهما أيضاً فأنه يلزم الإبن أن يبذل عن والديه كل خير حتى يزيد الله في حسناته أو يرفع عن كاهله السيئات.

فقد جاء عن الإمام الباقر عليه السلام: «**إن العبد ليكون باراً بوالديه في**

(١) البقرة: ٤٠.

(٢) لقمان: ١٤.

حياتهما ثم يموتان، فلا يقضي عنهما دينهما، ولا يستغفر لهما، فيكتبه الله عز وجل عاقاً لهما في حياتهما غير بار بهما، فإذا ماتا قضى دينهما واستغفر لهما فيكتبه الله عز وجل باراً»[1].

وعن النبي صلى الله عليه وآله يقول في رواية: «**من يضمن لي بر الوالدين وصلة الرحم أضمن له كثرة المال، وزيادة العمر، والمحبة في العشيرة**»[2].

ولذلك يكون بر الوالدين من أعظم الموجبات لرضا الله سبحانه وتعالى، وأثر رضا الله سبحانه وتعالى عليه بأن تكون الدنيا في خدمته وطوعه، ومنها تفتح له أبواب الرزق. وكم من أشخاص يطرقون أبواب الرزق في أحرج الأمور، فلا يحصلون على ما يريدون وذلك لأن ما نع الرزق موجود وهو عقوق الوالدين، أو عدم الالتفات إليهما بعد وفاتهما.

ومما يؤيد ذلك ما نقله المرحوم النهاوندي وهو من علمائنا في كتابه راحة الروح: أنه رأى بعض الموتى فرحين مستبشرين ورأى أمامهم شيخاً حزيناً مهموماً، فسأله عن حاله:

ما بالك مع هؤلاء وأنت بهذا الحال، الجميع فرح ما عداك؟

قال هذا الشيخ الحزين: إنّ هؤلاء لهم أولاد يتصدقون عنهم ولهم.

---

(١) الكافي ٢: ٣٤٨.

(٢) مستدرك الوسائل ١٥: ١٧٦.

فتصل إليهم المسرات، وتنعكس عليهم كأفراح (في تجليات برزخيه ونعيم برزخي) أما أنا فلا يتصدق عنّي!!

فقال له المرحوم النهاوندي: وهل لك ولد؟

قال: نعم عندي ولد، ويشتغل في غسل الأقمشة على الشاطئ.

يقول الشيخ النهاوندي: جلست من النوم وذهبت فعلا إلى شاطئ البحر أتحقق من صحة الرؤية أو أنها أضغاث أحلام، فوجدت ذلك الرجل في المكان الموصوف لي بالهيئة التي أخبرني عليها. فقد رأيته يشتغل بغسل الأقمشة.. فاقتربت منه وسألته عن حاله فأبدى لي الضيق في رزقه أنه بحالة يُرثى لها.

وقلت له: تصدق لوالدك إنّ والدك توفى، وهو بحاجة إلى صدقتك.

فما أن سمع الكلام حتى تبرم منه فقال: وما عساي أن أتصدق لوالدي وأنا ليس لديّ شيء؟

قلت له: ومع ذلك تصدق فإنّ الصدقة لها الأثر الطيب الذي سينعكس على حياتك.

فرد علي: هذه ثلاثة أكف من الماء آخذها من البحر وألقى بها على الشاطئ، قال هذا ما أستطيع أن أقدمه صدقة لوالدي. سمعت قوله فمشيت، وفي الليل رأيت نفس الرؤية ولكنني رأيته فرحًا مستبشرًا.

فقلت له: تبدلت أحوالك؟

قال: نعم إنّ ولدي تصدق عنِي.

قلت: وكيف تصدق عنك؟ لقد ذهبت إليه فلم أره تصدق عنك!!

فرد علي: نعم إنّ ولدي هذا تصدق عنِّي فسألته وكيف تصدق عنك؟

قال: بثلاثة أكف من ماء البحر.

قلت: إن ماء البحر لا قيمة له، فكيف رجع عليك بهذا الخير؟ قال: كانت هناك سمكة صغيرة، قد خرجت من البحر فلم تستطع العودة إليه وقد أعياها التعب، وكادت أن تموت لولا الأكف الثلاثة من ماء البحر التي ساعدتها على المقاومة والرجوع إلى البحر، وتقبل الله بلطفه هذا الصدقة منه، والله تبارك وتعالى قبل تلك الصدقة. فتغير حالي عما كان عليه.

ويتابع المرحوم النهاوندي في كتابه بالقول: وبعَد مدة رأيت ذاك الشخص الذي كان في حالة يرثى لها من الضيق والفقر بحالة من الثراء والغناء بعد أن كانت حياته ضنكا ومليئة بالمشاكل والصعاب.

وأنت أيها السالك إلى الله يجب أن تلتفت إلى قانونه في الكون من أن بر الوالدين من أعظم الواجبات، وأن عقوقهما من الكبائر التي حرمها الله وتوعد فاعلها بالخذلان والخزي في الدنيا والآخرة. ففي الدنيا حرمانه من الرزق، وفي الآخرة سوء العاقبة التي يختم بها في آخر ساعة من الدنيا وأول ساعة من الآخرة، فعن النبي الأعظم ﷺ: «**والعمل البار ما**

شاء أن يعمل، فلن يدخل النار»[1]. وهذا من الآثار العظيمة يعني أن خطيئته لا تحيط به ولا الآثام التي تصدر منه والتي تؤدي به إلى المقت بل أنّ بر الوالدين يؤدي به إلى أن يختم له بالحسنى وأن ينال مرتبة من الرضوان الإلهي وحينئذ يكون من الصالحين.

فعن النبي صلى الله عليه وآله في رواية أخرى: «سُئل عن أحب الأعمال إلى الله عز وجل؟ قال: الصلاة لوقتها ثم أي شيء؟ قال: بر الوالدين، ثم أي شيء؟ قال: الجهاد في سبيل الله عز وجل»[2].

ويكفيك أن تعلم أن والديك جنتك ونارك، كما جاءت به الروايات. وهنا أنفض غبار التقصير عن كاهلك، وكن متصفا بالوفاء لهما فكم أسدا لك من معروف لم يرجيا منك جزاءً ولا شكوراً. فلا تقابل عطاءهما بالجحود والنكران، أو التقصير والخذلان.

نجّانا الله وإياكم من هذا الخذلان بحق محمد وآله.

(١) مستدرك الوسائل ١٥: ١٧٦.
(٢) بحار الأنوار ٩٧: ١١.

كسب القلوب وتألفها

لا سبيل إلى الإنسان في كسب الآخرين إلا من خلال الفعل الحسن، والقول الطيب الجميل، بل حتى الفعل الحسن إن كان لا يصاحب قولا جميلا يكون مذموماً وذلك بأن يتبع العمل الحسن منّة.

قال تعالى: ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ﴾(١).

ومن هنا كان للكلام أثر على المُلقي قبل المُلقى عليه، وذلك لأن فعله يوجب أثر تكويني عليه في حياته الدنيوية والأخروية، ولذلك رتب الله أحكاماً، وقوانيناً شرعية على الكلمات التي يقولها الإنسان بقصد واختيار، ومنها جعل العقود من بيع، وشراء، وتوكيل، وزواج، وطلاق كله من خلال كلمات تقال.

ولذلك جاء في الدعاء يقول المتزوج في ليلة العرس حينما يخلوا

---

(١) البقرة: ٢٦٣.

بزوجته: «**اللهم وبكلماتك استحللت فرجها**»[1].

وأفضل صورة يمكن تصويرها لذلك هو قول الله تعالى حينما يصف الكلمة الطيبة بأنها مثل الشجرة المثمرة التي تكون عالية وقطوفها دانية وهي منتجة في كل حين: ﴿**أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاء ۞ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ**﴾[2]

ومتى كان السالك إلى الله لا يقول إلا الطيب، ولا يتفوه إلا بالذكر الحسن والكلمات الجميلة فأنه يمتلك من القلوب ما لا يملكه غيره. ففي الرواية: «**الكلمة الطيبة صدقة**»[3]، وبخلافها القول الفاحش، والبذيء فأنه أمر مرفوض جدا حتى مع من لا يستحق الخطاب وذلك لأنه الكلام يخرج من القلب والذي هو معدن النفس ومن هنا قال الشاعر:

إنما الكلام لفي الفؤاد وإنما جعل الكلام على الفؤاد دليلا

ولأن للكلام والتي مفردها كلمة أثر قوي اشتق من معنى كلم وهو الجرح، وما ذلك إلاّ لأنّ الكلمة لها أثر تؤثر به، كالجرح الذي يجرحه الإنسان بواسطة السيف أو الخنجر أو السكين.

---

(١) الكافي ٥: ٥٠٣.

(٢) إبراهيم: ٢٤ـ٢٥.

(٣) بحار الأنوار ٧٤: ٨٥

ولكي نفهم لماذا أعطى الإسلام كل هذه الأهمية للكلمات في العقود وغيرها، وما للكلمات السيئة من تأثير على الآخرين، وكيف أن الجهل بها يؤدي إلى عدم اتضاح الرؤية ننقل هذه الحادثة:

إنّ وفدًا من أوربا جاء لزيارة إيران في زمن الشيخ البهائي (رحمه الله)، الشيخ البهائي كان من العلماء الأفذاذ، شخصية لامعة، والله تبارك وتعالى أعطاه بالإضافة إلى العلم حسن الخلق، دماثة، لين عريكة، كلمة طيبة، لا يسيء إلى أحد، وإنما يغضب لله، انطلاقًا من توجيهات الشارع المقدس، وعادة كان الملك آنذاك الشيخ عباس الصفوي، يفخر بأنّ الشيخ البهائي من علماء البلاط، فكان يحضر إذا جاءت الوفود من دول مختلفة ليتحدث إليهم ببيان فلسفة الأحكام وأهمية التقيد، أو الانضباط بأوامر الشارع المقدس. فلما جاء ذلك الوفد من أوربا طرح أحدهم إشكالا على الشيخ البهائي فقال له:

إنما تتمسكون بعادات بالية وقديمة لأنّ المدار في الأحكام على الرضا، فلا ينبغي أن تتقيدوا بهذه الكلمات التي تتفوهون بها في بعض العقود كعقد النكاح؟

فلما سمع إشكاله ردّ الشيخ البهائي عليه قائلا له: لا تأكل خراك.

قال ذلك وخرج الشيخ ولم يعقب بأي كلمة أخرى، فغضب السائل واعتبرها إهانة لدولته، فهو يمثل وفد دولة. فاشتط غضباً وأخذ يتمتم بكلمات الغضب، وهو يقول لمن كان حاضرا في المجلس: هكذا

علمكم الإسلام التعامل مع الضيوف بالأخلاق الحسنة والطيبة؟ أهذه هي أخلاق الإسلام؟

ثـم أنتظـر مجـيء الـشاه عبـاس الـصفوي ليـشتكي إليـه علـى الـشيخ البهائي، فلما جاء الشاه عباس، تكلم معـه هـذا الأوروبـي قـائلاً لـه: أتعلـم ماذا قال الشيخ لي؟ فحكى له القصة، بالفعل تعجـب الـشاه عبـاس كيـف يصدر من الشيخ البهائي هذا الكلام، مع أنّ الشيخ من المعـروفين بدماثـة الخلق، وحسن العريكة والملاطفة والكلمات الطيبة، فكيـف قـال لممثـل الوفد هذه الكلمـات؟ فاسـتدعى الـشاه عبـاس الـشيخ البهـائي، فلمـا جـاء الشيخ البهائي ودخل، سلّم على الوفد المكوّن؛ من عدة أشـخاص بـسلام جميل ولاطفهم ومازحهم واحداً واحداً حتـى ذلـك الـذي غـضب عليـه. فتعجب فسأل الشاه عباس الشيخ البهائي عن سر تصرفه وقوله ؟

فأجاب الشيخ: هو من قال إنّ التمسك بمجـرد عـادات باليـة وقديمـة والكلام لا تأثير له، فأردت أن أخبره بموقفٍ عملي بتأثير الكلام، ثـم أنـا لم أشتمه وإنما نهيته قلت له: لا تأكل خراك، لم أقل له كل خراك، ومع ذلك غضب وتأثر فكيف لو أنني أمرته بعكس ذلك ؟

فكان فعل الشيخ أكبـر درس لهـذا الـشخص ولنـا، فـي أن الكلمـات التي يقولها الإنسان لها تأثير كبير على الآخرين، من هنا أيها الـسالك إلـى الله لا تجعل فمك مفتوحاً، ولا تقل كل ما تعلـم، حتـى لـو كـان حقـاً بـل التزم الصمت واجعل حديثك، القول الطيب، ولا تتفـوه بكلمـات نابيـة أو

كلمات خبيثة، فأنها تؤدي إلى القطيعة، وإلى العداوة وإلى البغضاء حتى لو صدرت على سبيل المزح؛ لأنها تؤدي إلى الحنق والغيظ. ولذا على الإنسان أن يتعامل دائمًا مع الغير من خلال أوعية تحمل المعاني الجميلة والكلمات اللطيفة بالخصوص مع أقرب المقربين إليك مثل أولادك أصدقائك زوجتك، مع أمك وأبيك. وخص الله سبحانه وتعالى الوالدين أكثر من عدم التفوه لهم بأي كلمة فيها معاني التأفف والتضجر: **﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاَهُمَا فَلاَ تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا﴾**[1].

---

(١) الإسراء: ٢٣.

خلق الجاهلية

اتصفت الجاهلية ببعض الأخلاق الحسنة وجاء النبي الأعظم ليتمم تلك الأخلاق فقال: «**انما بعث لأتمم مكارم الأخلاق**»[1].

وكذلك كانت لديهم عادات جاهلية وينطبق عليها معنى الجهل والجاهلية انطباقا أكيدا. وهي كثيرة، فجاء الإسلام لكي يخلص الناس منها، من أجل أن يتساموا، ويترقوا، ومن أهم هذه الأمور هو التعصب الأعمى، ومنشأه الجهل الحقيقي. فالتعصب على قسمين:

الأول: تعصب مذموم.

وهو كل فعل ينشأ من رفض الآخر وعدم القبول به، بأي وجه من الوجوه لاعتبارات زائفة، وأمور اعتباريه ليست حقيقية، كالتعصب بالأنساب، أو الجاه، أوالبلاد، ونحوه. ومن آثار هذا التعصب هو رفض الأخر وعدم القبول به. مما يحجب عن الإنسان الاستفادة من الطرف المقابل. لذا جاء الإسلام وحذر تحذيرا قويا من الاتصاف بهذه الصفة

---

(١) غرر الحكم: ٦٢٧٨.

(العصبية) لذلك قال النبي صلى الله عليه وآله: **«من تَعصب أو تُعصب له فقد خلع رفقة الإيمان من عنقه»**[1].

فالرفقة هي الحبل الذي يقيد الإنسان المؤمن وهذا تشبيه كما نقيد البهائم فالإنسان يقيد أيضاً بمبادئه وقيمه الذي يَتعصب أو يُتعصب له كأنه قد خلع رفقة الإيمان أي الحبل الذي يشده بالإيمان، وعنه صلى الله عليه وآله: **«من كان في قلبه حبة من خردل من عصبية بعثه الله يوم القيامة مع أعراب الجاهلية»**[2]،

ويقول صلى الله عليه وآله: **«ليس منّا من دعى إلى عصبية وليس منّا من قاتل على عصبية»**[3].

ومن وصايا الإمام أمير المؤمنين عليه السلام للأشتر في كتابه يقول له: **«أملك حمية أنفك وسورة حدك وسطوة يدك وغرب لسانك»**[4].

وهذا الخلق مذموم لا يفعله أهل الحق، ولا يقوم به من يثق بنفسه وبما لديه من قدرة وقابلية يستطيع من خلالها أن يثبت حقيقة أمره، ولا يحتاج إلى إثباته إلى تعصب، أو سباب، أو تجريح للآخرين من أجل

---

(١) الكافي ٢: ٣٠٧.

(٢) الكافي ٢: ٣٠٨.

(٣) سنن أبي داود ٢: ٣٣٢.

(٤) مستدرك الوسائل ١٣: ١٧١.

إظهار أن الحق معه ومن ذلك قال الله تعالى: ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾[1].

ومن روائع ما يذكر في هذه الصدد لشخصية بارزة في حياتنا المعاصرة وهو السيد علي السيستاني (حفظه الله) وأن الطريق الذي جعله يصل إلى هذه المقام العالي هو تهذيب نفسه، وعدم التعصب لرأيه مهما كان حتى لو أعتقد صحته. يقول أحد تلامذته: جاءه يوم طالب من طلاب العلم فطرح على السيد مسألة من المسائل، فاشتد البحث بينهما وبيّن ذلك الطالب أنّ الحق ليس مع السيد السيستاني وإنما هو مع السيد الخوئي (قد)؛ لأنّ ذلك الطالب كان يتبنى رأي السيد الخوئي في المسألة العلمية والسيد السيستاني يختلف معه في هذه المسألة، حاول جاداً أن يغير رأي السيد السيستاني فما استطاع إلى ذلك سبيلاً، فصدرت منه كلمات غير طيبة تجاه السيد السيستاني ومع ذلك السيد السيستاني حاول أن يبين للطالب رأيه العلمي بكل أدب واحترام جم دون أن يصدر منه ما لا يليق بشخصه الكريم، كان يسير على وفق الموازين الأخلاقية والعلمية، وبعْدما انتهى هذا الحوار ومشى ذلك الطالب المتعصب لرأي

---

(١) الفتح: ٢٦.

السيد الخوئي رحمه الله، التفتُ إلى السيد السيستاني قائلاً: لقد صدرت من الطالب كلمات نابية وغير لائقة فلم ترد عليه؟

أجاب السيد السيستاني: هناك قصة:

فعندما كنت شاباً درست الفلسفة وأتقنت المطالب الفلسفية إتقاناً جميلاً ودقيقاً حتى دعاني هذا الإتقان أن أتمسك بآراء الفلاسفة والحكماء، وأرى أنّ ما يصدر عنهم هو الحق، لكن كنت ملتزماً بأنني لا أتعصب لرأيي بالرغم من اعتقادي أنّ ما أنا عليه من رأيٍ خلاصته هذا الرأي، وأنّ ما صدر من الفلاسفة من آراء ونظريات سليم، ولكني في نفس الوقت لا أتعصب لرأيي.

وفي يوم رأيت عالمًا في الفقه والأصول من عمالقة العلم في مشهد الإمام الرضا عليه السلام وكان هذا العالم اسمه الشيخ مهدي الاصفهاني، وكان ضد الفلاسفة مطلقاً، فهو لا يقبل منهم شيئاً بخلافي الذي أعتقد صحة ما يقولون مئة بالمئة، لكن ذاك عالم في الفقه والأصول، فدرست عنده فلو تعصبت لرأيي، لم أستفد من علم ذلك العالم، ولا أدرس عنده، لكن عدم التعصب يدعونني للاستفادة من علمه، وإنِ اختلفت معه في الرأي في مجال محدد أو في حقل من علم معين. وبالفعل حضرت أبحاث هذا العالم وكان هذا العالم لا يدع مناسبة إلاّ ويندد بالفلاسفة وبآرائهم عكس اتجاهي، ولكن لم أترك درسه بل تعلمت من خلال حضوري لدرس ذلك العالم قبول الحوار العلمي مع من اختلف معه في الرأي؛ لأنّ

هذا الحضور والترويض النفساني طوال هذا المدة مع هذا العالم وعنده والذي اختلف معه في الرأي جعلني لا اتعصب حتى في المسائل التي اعتقد بصحتها. فأكون محايداً في الحوار العلمي للوصول إلى الرأي الصواب، بل أني اقبل أن يأتني شخص ويقول لي: إن جميع ما تعتقد به من مسائل فلسفية غير مسلمة. فإني أستمع لما يقول من غير أي تأنفٍ أو تضجر، لماذا؟ لأني لا أتعصب لرأيي؛ لأنّ العصبية تؤدي بالإنسان إلى ما لا يُحمد عقباه أما عدم التعصب للرأي، لا، يدعوك لأَنْ تأخذ ما لدى غيرك من علم وكمال.

وبهذه الطريقة وصل سماحته إلى المقام السامي الذي أعطاه الله إياه ببركة ترك صفات الجهل وخلق الجاهلية.

الثاني: التعصب الممدوح.

وهو التعصب للحق، وإلى الله سبحانه وتعالى ولكن حتى هذا التعصب لا يكون ممدوحا إلا بشروط معينة منها قبول الاستماع إلى الآخر حتى مع الاعتقاد بعدم صحة قوله ولذلك قال تعالى معلماً أنبياءه كيف يخاطبون الذين يرفضون الرسالات بقولهم: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾[1].

---

(١) سبأ: ٢٤.

فلم يرفض أن يكون الطرف الأخر على صحة حتى مع علمه بأنهم على خطأ.وذلك حتى يجذبه نحوه ويقبل منه. وفي حالة رفضه فإنه لا يولد من الرفض إلا الرفض، وهذه النتيجة غير مقبولة عند العقلاء. إذن التعصب إلى الحق لا ينفي قبول الآخرين، وهذه يحتاج إلى فن وعلم ولكي نفهم ذلك علينا أن نسمع كلام أمير المؤمنين عليه السلام الذي يحدد الميزان في التعصب المذموم والممدوح من نهج البلاغة، استمع لما يقول: «انْظُرُوا إِلَى مَا فِي هَذِهِ الْأَفْعَالِ مِنْ قَمْعِ نَوَاجِمِ الْفَخْرِ وَ قَدْعِ طَوَالِعِ الْكِبْرِ، وَلَقَدْ نَظَرْتُ فَمَا وَجَدْتُ أَحَداً مِنَ الْعَالَمِينَ يَتَعَصَّبُ لِشَيْءٍ مِنَ الأَشْيَاءِ إلا عَنْ عِلَّةٍ تَحْتَمِلُ تَمْوِيهَ الْجُهَلاءِ، أَوْ حُجَّةٍ تَلِيطُ بِعُقُولِ السُّفَهَاءِ غَيْرَكُمْ. فَإِنَّكُمْ تَتَعَصَّبُونَ لأَمْرٍ مَا يُعْرَفُ لَهُ سَبَبٌ وَلا عِلَّةٌ أَمَّا إِبْلِيسُ فَتَعَصَّبَ عَلَى آدَمَ لأَصْلِهِ وَطَعَنَ عَلَيْهِ فِي خِلْقَتِهِ فَقَالَ أَنَا نَارِيٌّ وَأَنْتَ طِينِيٌّ.

وَأَمَّا الأَغْنِيَاءُ مِنْ مُتْرَفَةِ الأُمَمِ فَتَعَصَّبُوا لآثَارِ مَوَاقِعِ النِّعَمِ، فَقَالُوا: ﴿نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوالاً وَأَوْلاداً وَما نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ فَإِنْ كَانَ لا بُدَّ مِنَ الْعَصَبِيَّةِ فَلْيَكُنْ تَعَصُّبُكُمْ لِمَكَارِمِ الْخِصَالِ وَمَحَامِدِ الأَفْعَالِ وَمَحَاسِنِ الأُمُورِ الَّتِي تَفَاضَلَتْ فِيهَا الْمُجَدَاءُ وَالنُّجَدَاءُ مِنْ بُيُوتَاتِ الْعَرَبِ وَيَعَاسِيبِ الْقَبَائِلِ، بِالأَخْلاقِ الرَّغِيبَةِ وَالأَحْلامِ الْعَظِيمَةِ وَالأَخْطَارِ الْجَلِيلَةِ وَالآثَارِ الْمَحْمُودَةِ فَتَعَصَّبُوا لِخِلالِ الْحَمْدِ مِنَ الْحِفْظِ لِلْجِوَارِ وَالْوَفَاءِ بِالذِّمَامِ وَالطَّاعَةِ لِلْبِرِّ وَالْمَعْصِيَةِ لِلْكِبْرِ وَالأَخْذِ بِالْفَضْلِ وَالْكَفِّ عَنِ الْبَغْيِ وَالإِعْظَامِ لِلْقَتْلِ وَالإِنْصَافِ لِلْخَلْقِ وَالْكَظْمِ لِلْغَيْظِ وَاجْتِنَابِ الْفَسَادِ فِي الأَرْضِ

وَاحْذَرُوا مَا نَزَلَ بِالأُمَمِ قَبْلَكُمْ مِنَ الْمَثُلَاتِ بِسُوءِ الأَفْعَالِ وَذَمِيمِ الأَعْمَالِ فَتَذَكَّرُوا فِي الْخَيْرِ وَالشَّرِّ أَحْوَالَهُمْ وَاحْذَرُوا أَنْ تَكُونُوا أَمْثَالَهُمْ فَإِذَا تَفَكَّرْتُمْ فِي تَفَاوُتِ حَالَيْهِمْ، فَالْزَمُوا كُلَّ أَمْرٍ لَزِمَتِ الْعِزَّةُ بِهِ شَأْنَهُمْ...»[1]

ومن خلال التأمل في خطبة الإمام علي عليه السلام والكلام الموجود فيه يعطي الضوابط والموازين التي يجب أن يتعصب لها الإنسان، وكيف يكون ذلك التعصب بميزان الحق؟ وإلا كان جزءا لا يتجزأ من أخلاق الجاهلية التي ذمهم الله في الآية السابقة، وعدَّهم من الكفار الذين لم ينزل عليه سيكنته، وحصره بالمؤمنين الذين لا يوجد لديهم حمية الجاهلية.

(١) نهج البلاغة، خطبة رقم: ١٩٢.

النقد بين البناء والهدم

كل إنسان ماعدا المعصوم ناقص وهذا النقص له صور مختلف بحسب الأشخاص، والقابليات والتجليات للكمال والنقص في ذات زيد أو ذات بكر. وعلى هذه القاعدة المسلمِ بها عند كل البشر فإنهم يتحركون وفق منظور أنهم مخطئون باحثون عن الكمال، ولذلك لابد أن يكون هناك نقد في مراحل بناء الذات حتى تتكامل. ومنها انبثقت حاجة لدى الناس أن يقوِّموا بعضهم البعض، بما تكاملوا فيه، وبيان النقص في الآخرين. ولهذا التقويم طريقان:

طريق ممدوح: وهو النصح بالطرق المناسبة من أجل التكامل بصورة يحافظ فيها الناقد على هيبة وشخصية الموجه إليه النقد. لهذا أمر الإسلام أتباعه باتباع هذا الطريق وعدم الرجوع عنه فقد جاء عن الإمام علي عليه السلام: «**من وعظ أخاه سرًّا فقد زانه ومن وعظه علانية فقد شانه**»[1]، هذا أولا.

---

(١) بحار الأنوار ٧١: ٦١.

ثانيا: أن يكون بينك وبين نفسك حب لهذا الإنسان بمعنى أن تتوجه إلى الله في إصلاح ما صدر منه من خطأ حتى يمن الله تبارك وتعالى عليه بالإصلاح وتلافي ذلك العيب وإصلاح ذلك الخطأ، الإنسان إذا دعا لأخيه الله تبارك وتعالى يستجيب له الدعاء، ولذا الموقف الأخلاقي الذي دعت إليه الشريعة المقدسة، هو أن تهتم بإكمال أخيك المؤمن في إصلاح العيب له، وأن تدعو له، وأن تجعل نفسك بطبيعتها محبة لذلك الإنسان غير كارهة له، وبأن تبحث وتطلب ما يصدر منه من هفوات وعيوب لتتخذ ذلك وسيلة لانتقاصه والعيب فيه. بل لابد أن يكون طريقتك في النصح أن تذهب إليه وتقول له يا فلان أن الفعل الفلاني يظهرك بالمظهر الذي لا يليق بك، أو لو فعلت كذا كان أجدر بك وبمكانتك، وهكذا حتى يكون باعث الاستجابة منشأه الحب له.

ومن الأساليب التي اعتمدتها الشريعة هي عندما يرغب إنسان في توجيه اللوم، أو النقد لأحد فلينظر إلى نفسه، ويسعى في خلاصها من عيوبها، ثم ينتقل إلى نصح الآخرين، وهو بهذه الطريقة يكون قد أعطى درساً فعلياً. يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «**معرفة المرء بعيوبه أنفع المعارف**»[1].

طريق مذموم: وهو التعيير والاستنقاص بحيث توقع الشخص

---

(١) عيون الحكم والمواعظ: ١١٥.

المراد توجيه النقد إليه إلى الإحراج والسخرية من قبل الآخرين، بل حتى بينه وبين نفسه. ولو كان الحجة الظاهرية للناقد هو نقد الذات وإصلاحها فمثل هذه التصرف يعتبر محرماً لدى الشرع الإسلامي. فإن قصر النظر على عيوب الشخص فقط، توجه خاطئ يعطي انطباعاً سيئاً عن نفس الناقد وعن الآخرين، مما يؤدي إلى انعدام الجانب الإيجابي لديه. فيكون دائماً سيئ الظن بالآخرين، وبالتالي ستكون هناك انعكاسات خطيرة على الفرد وعلى المجتمع. ومن هنا لنتأمل القصة جيدة التي جرت بين النبي عيسى عليه السلام مع حورايه وهو يعلمهم كيف يجب أن ينظروا بشكل إيجابي حتى في الأمور السلبية، مر عيسى عليه السلام يوماً مع بعض تلامذته على جيفة كلب، فقالوا: ما أنتن هذا.

التفت عيسى عليه السلام وقال: ما أشد بياض أسنانه.

وكذا في رواية النهي عن التعيير حتى لا يبتلى الإنسان بمثلها، فعن الإمام الصادق عليه السلام قال: «**لا تبدي الشماتة لأخيك فيرحمه الله ويصيرها بك**»[1]، وقال: «**من شمت بمصيبة نزلت بأخيه لم يخرج من الدنيا حتى يفتتن**»[2].

ولذلك ينبه الله تبارك وتعالى العلماء والصالحين والأولياء بأكثر من

(١) أصول الكافي ٢: ٣٥٩.
(٢) أصول الكافي ٢: ٣٥٩.

ذلك حتى يرتقوا إلى المستوى العالي من الخُلق الكريم كما يقول الله لموسى بن عمران ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾[1].

وأن النعم التي أفاض الله بها عليك هي من مواهب الرحمن، هذه المواهب التي جاءت إليك ومنحك الله إياها يمكن أن تزول عنك، في طرفة عين، فلابد عليك أخي السالك أن تتوجه دائماً إلى مصدر الكمال المطلق وهو الله تبارك، فلله ألطافا خفية يربي بها العلماء حتى يتكاملوا مهما بلغوا من المراتب والدرجات، ومن هؤلاء السيد الخوئي (رضوان الله عليه) يقول: دخلت يوماً حرم الإمام أمير المؤمنين عليه السلام ورأيت واحداً يصلي في طريق ضيق وقد سد الطريق على المارة، فقلت أما رأى هذا المؤمن مكاناً أوسع من هذا المكان. قلت ذلك في نفسي ولم أبدها وسرت نحو مقصودي والناس تزدحم بجانبه وهو يصلي ومرت الأيام وإذا بي من دون أن أتوجه وإذا بي في نفس ذاك المكان أصلي والناس يتبرمون من جلوسي وهم يتدافعون بقوة.. حتى ابتليت بذلك قلت: أما لهؤلاء المؤمنين من طريق آخر يمرون منه غير هذا ؟

فانتبهت إني لمت ذلك الشخص في نفسي حينما كان يصلي في هذا المكان فكيف وقعت في ما لمت به غيري؟ بل لمت الغير الآخرين يتدافعون من حولي؟ أي خطأ ارتكبت!!

---

(١) طه: ٣٩.

أسباب النقد والتحدث على الأمور:

إن الباعث الحقيقي للتحدث عن أي أمر بصورة سلبية سببه فقدان الناقد للرؤية الكاملة الواضحة نحو الشيء، ومن هنا يكون الجهل به هو أول أسباب الموجبة للنقد والتقريع، فلذلك روي عن الإمام علي عليه السلام: «**من قصر عن معرفة شيء عابه**»[1].

ويقول الإمام الجواد عليه السلام: «**من جهل شيئاً عابه**»[2].

الرغبة الجادة في الإصلاح:

تعتبر الرغبة الجادة في إصلاح العيب بالضوابط التي ذكرناها هو علامة الإخلاص الحقيقي والحب، ولا تكفي الرغبة فقط بل السعي بقدر المستطاع حتى تؤتي نتاج النصح والنصيحة، وإلا فمجرد التمني لا يكفي فقط، أو الرغبة في الإصلاح وحدها لا تنفع، بل لابد أن تترجم تلك الرغبة إلى خطوات عملية تصدق ذلك أو تكذبه، لذا ضرب الله مثلا في النبي شعيب عليه السلام عن رغبته الصادقة لإصلاح قومه حيث يقول الله تعالى عنه: ﴿**قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىَ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاَحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ**

---

(١) الإرشاد ١: ٣٠١.

(٢) كشف الغمة ٣: ١٣٧.

أُنِيبُ﴾[1].

وهنا نقطة مهمة أشار إليها شعيب أن ما فيه من الصلاح ليس من ذاته بل هو من توفيقات الله، من خلال التوكل عليه فهو لم ينصحهم لميزة في ذاته، أو تعالياً عليهم، ولكن من خلال لجوئه إلى الله، وهو سبب صلاحه، وابتعادكم عن الله سبب فسادكم لذا ادعوكم لترجعوا إلى الله وتنيبوا حتى تحصلوا على الخير الوافد.

طريقة التعامل مع النقد:

ما هو الأسلوب الأمثل في التعامل مع الأشخاص الذين يسيئون الأدب معك، ويحاولون أن يسقطوك من أعين الناس، أو يحقروك بينهم؟

يمكن أن يلخص جواب ذلك بما قاله رسول الله ﷺ: «**إنْ عيَّرك أخوك المسلم بما يعلم فيك، فلا تعيره بما تعلم فيه، يكون لك أجرًا وعليه الإثم**»[2].

جاء شخص من الأعراب ورأى النبي ﷺ بهيبة وعظمة واسمه أبو جري جابر بن سليم، يقول: رأيت رجلاً يصدر الناس عن رأيه لا يقول شيئاً إلا صدروا عنه.

---

(١) هود: ٨٨

(٢) تنبيه الخواطر ١: ٥٧.

قلت من هذا؟

قالوا هذا الرسول، إلى أن قال: قلت للرسول ﷺ: أعهد إليّ. قال: لا تسبنّ أحدًا،

قال: فما سبت. ولا تحقرن شيئاً من المعروف لعله يكون لله رضا وتنال شيئاً عظيمًا من الله تبارك وتعالى... وإن امرئ شتمك وعيرك بما يعلم فيه فلا تعيره بما تعلم فيه فإنما وبال ذلك عليه فقال الإعرابي: فما سببت بعْد حرًّا ولا عبدًا ولا بعيراً ولا شاةً.

ولذلك نلاحظ أن النبي ﷺ وبخ أبا ذر لما عير رجلا بأمه فقال له رسول الله: أنك رجل فيك جاهلية.

أي أن هذا التصرف ليس من الإسلام وليس من خلقه إنما هي من أخلاق الجاهلية؛ ولذلك أدب الإسلام أتباعه بالصفح والعفو قال تعالى: ﴿إِن تُبْدُواْ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُواْ عَن سُوَءٍ فَإِنَّ اللّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾(١).

فالطريقة الشرعية هو العفو عن الآخرين وعدم التجبر عليهم والتسلط عليهم حتى لو كانوا من الضعفاء والمساكين، أو من بيدك رزقهم، كخدم، أو عمال يعملون لديك، فلا تعاملهم بالصفح الجميل عن تقصيرهم وأخطائهم.

---

(١) النساء: ١٤٩.

الآثار السلبية لتعيير الآخرين:

لاشك أن كل فعل له أثر سواء كان أثراً إشراقياً أو ظلمانياً، ومن الأمور التي لها تأثير سلبي، هي تعيير الآخرين واستنقاصهم فعن الإمام الباقر عليه السلام: «**ما من إنسان يطعن في عين مؤمن إلاّ مات بشر ميتة وكان قمنًا أن لا يرجع إلى خير**»[1].

وعن النبي صلى الله عليه وآله يقول: «**إنّ الله عز وجل خلق المؤمن من عظمة جلاله وقدرته، فمن طعن عليه أو ردّ عليه قوله فقد ردّ على الله عز وجل**»[2].

---

(١) الكافي ٢: ٣٦١.

(٢) الأمالي: ٣٠٦.

الرؤيا وكشفها للواقع

من لطف الله على عباده أن جعل لهم قدرة على تجاوز العالم المادي، وتلمس عالماً فوق عالم الطبيعة، يشعر بكل ما يشعر به في حركته الطبيعية، في يقظته، فيحسها في منامه وذلك من خلال الرؤيا والمنامات التي يشاهدها النائم في نومه. ولم يجعلها الله عبثا. بل لها فوائد كثيرة. قال تعالى: ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ اللّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلاً وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَلَكِنَّ اللّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾[1].

والرؤيا في المنامات قد تغير سلوك إنسان، وتبدل معتقد آخر وتحول تفكيره وتصرفاته، كل ذلك من خلال رؤيا رآها، أو رويت له بأن فلان شاهده في منامه. ولم تكن هذه الأمور ضربا من الخيال، أو تخرصا من الجهل بل لها واقع، ولكن هذا الواقع يختلف درجته ووضوحه من شخص إلى آخر. فأصدق الرؤيا رؤيا الأنبياء عليهم السلام: ﴿إِذْ

---

(١) الأنفال: ٤٣.

قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾[1].

ثم من يليهم في التقى والورع، مع ملاحظة صفاء النفس وقابليتها لرؤية ذلك العالم، فلذلك عبر الله عن ذلك بالبشرى، قال تعالى: ﴿لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ لاَ تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾[2].

ولكي تصدق الرؤيا فإن لها أوقاتاً تصدق فيه. كأن تكون الرؤيا في وقت السحر، أو قبل الغداة بساعة، وقد تصدق في غيرها، ولكن هذين الوقتين يشتهر فيهما الرؤيا الصادقة. ولتفسير الرؤيا ومعرفتها يحتاج إلى فن وعلم، وليس لأي شخص أن يقوم بتفسير الرؤيا، فقد يشاهد النائم شيئاً مقيتاً في رؤياه، وعند تفسيرها يكون تأويلها حسن، وقد يكون العكس بالعكس. وكيفما كان فإن للرؤيا جزء من الواقع كما جاءت به الروايات فعن النبي الأعظم ﷺ في تفسير الآية السابقة: «**هي الرؤيا الحسنة يرى المؤمن فيبشر بها في دنياه**»[3]،

يقول النبي ﷺ: «**لم يبقَ من النبوة إلاّ المبشرات قالوا له يا**

---

(١) يوسف: ٤.

(٢) يونس: ٦٤.

(٣) الكافي ٨: ٩٠.

رسول الله وما المبشرات؟ قال: **الرؤية الصالحة**»[1].

وعن الإمام الصادق عليه السلام يقول: «**إنّ المؤمن رؤياه جزء من سبعين جزء من النبوة**»[2]، أي أن لها جزء من الواقعية.

وعنه عليه السلام: «**رأي المؤمن ورؤياه في آخر الزمان على سبعين جزء من النبوة**»[3].

وعندما نقول إنها جزء من سبعين جزء من النبوة فأنها تشير إلى حقيقة إمكان وقوع الرؤيا كما يراها النائم، ولكن لا يعني بالضرورة صدقها في كل حين، ومتى كانت كذلك فإن من الخطأ الذي يقع فيه الكثير من الناس هو الحكم على الآخرين من خلال رؤيا رآها، أو حلم شاهده في منامه، فيبني عليه معتقداته، وتصرفاته وهذا الأمر لا يقبله الشارع الإسلامي مطلقاً. فإن الموازين التي يبني عليها الدين الأمور هو العقل والشرع، لا المنامات والأحلام وأضغاث الأحلام.

فلا يقول أحد إني رأيت الشخص الفلاني بشكل مقيت، فهو يدل على خبث سريرته وإذا كان العكس فيدل على طهارته، أو إن البعض يترك زوجته التي يريد أن يتزوجها بسبب أنه رأى شخصاً يقول له: لا

---

(١) بحار الأنوار ٦١: ١٧٧.

(٢) كتاب المؤمن: ٣٥.

(٣) أصول الكافي ٨: ٩٠.

تتزوجها ونحوه. فإذا كان الحال هكذا في الأمور الدنيوية فإنه من باب أولى أن يكون كذلك في الأمور الشرعية سواء كانت الرؤيا في المنام لإنسان عادي، أو لعالم كبير، أو لولي من أولياء الله فلا يصح التعبد، أو الاعتقاد بالأحكام من خلال المنامات. ولقد أستحق المحقق الحلي لقباً، وشرف هذا اللقب بسبب أنه لم يتعبد بالمنامات فقد كان صاحب الشرائع رحمه الله، يدرس في المسجد فدخل مجنون فأمر بطرد المجنون عن المسجد، في الليل رأى شخصًا نورانيًا يقول له: لا تطرد المجنون إذا دخل المسجد.

في اليوم الثاني جاء ذلك المجنون أيضاً، فقال لتلامذته اطردوا ذلك المجنون من المسجد، فطردوه وفقاً لأوامر الشيخ، وتكررت الرؤيا في الليلة الثانية وفي الليلة الثالثة وذلك الرجل النوراني ينهاه عن طرد المجنون من المسجد، إلا أن الشيخ يقوم بطرده، وفي الليلة الرابعة جاءه ذلك الشخص النوراني وقال له: يا أبا القاسم ـ كنيته أبو القاسم ويلقب بنجم الدين ـ لماذا طردت المجنون فلامه؟

قال له المحقق: لو رأيتك ألف مرة، أو سبعين ألف مرة لما غيرت رأيي في طرد ذلك المجنون؛ لأنّ لدينا سبع روايات تأمر بطرد المجانين من المساجد، ولن أغير رأيي في الأحاديث الصحيحة بحسب رؤية رأيتها هذا أولا، وثانياً إن الرؤية ليست من مصادر الأحكام الشرعية فمصادر الأحكام الشرعية الكتاب والسنة والإجماع والعقل وليس من

ضمنها عالم الرؤيا حتى تغير لنا الأحكام، التفت إليه ذلك النوراني قال له أردت أن امتحنك، فوجدتك محقاً، بعدها قص الرؤيا على تلامذته فشاع تلقيبه بالمحقق بين الجميع.

والحق يقال لو إن شخصا منا رأى مثل هذه الرؤيا لغير كل آرائه وأفكاره، ولكن المحقق يتبع ما ورد عن الله ورسوله وأهل البيت صلوات الله عليهم ولم يلتفت إلى مثل هذه الأمور. فما يلزمنا هو العمل بالموازين الشرعية فقط. بل حتى لو وافقت الرؤيا الواقع والحكم الشرعي فلا يؤخذ به إتباعا للمنام أو لرؤية ولذلك يقول الصادق عليه السلام: **«إنّ دين الله أعز من أن يرى في النوم»**[1].

وهذه الرواية تريد أن تشير إلى نقطة مهمة وهي أن دين الله عزيز بحيث لا يمكن لأحد أن يتلاعب بالأحكام الشرعية من خلال منام يشاهده،ولو فتح المجال لهذا الأمر لم يبقى من دين الله إلا القشور والخزعبلات وصار الإسلام دينا وهنا لا قيمة فيه.

---

(١) الفصول المهمة ١: ٦٨٩.

أداء الأمانة

من الصفات المهمة التي يجب أن يتحلى بها الإنسان هي «الأمانة» فإنها تعطي للإنسان قيمة إيمانية كبيرة، ومنزلة اجتماعية محترمة فتجعله بين الناس مصدقاً، يُقبل عليه، ويأخذ منه من غير عناء في أثبات صدقه من عدمه.ولهذا أتصف بها نبينا محمد ﷺ واشتهر بها، أنه الصادق الأمين.

فهو أمين لم يخن صادق لم يكذب، وكانت هذه الصفة من الصفات التي جعلت كثيرا من الناس يقبلون دعوته ونبوته.

والأمانة على أنواع مختلفة فمنها الأمانة على سر ما، أو على عرض، كأن يؤمنك شخص على عرضه وعياله في سفر، أو أن تتعهدهم في غيابه، أو على مال.

وقد تكون الأمانة في العبادة وإتيانها كما أمر الله سبحانه وتعالى ولذلك كان الإمام أمير المؤمنين عليه السلام إذا حضر وقت الصلاة يتململ ويتزلزل ويتلون فيقال له ما لك يا أمير المؤمنين؟

فيقول: «**جاء وقت الصلاة، وقت أمانة عرضها الله على السماوات والأرض فأبين أن يحملنها وأشفقن منها**»[1].

وحديثنا سيكون عن أداء الأمانة المالية التي تعتبر من أصعب الأمانات عند الناس على مختلف مستوياتهم، وتفكيرهم ولذلك مدح الله الذين يحافظون على أمانتهم ويرعونها حتى يؤدونها إلى أصحابها قال تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ هُمْ لأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ**﴾[2].

وأما الذين لا يحافظون على الأمانة فإنهم يعيشون الجهل، والظلم لأنفسهم ولغيرهم لذلك عبر الله أيضاً عن هذه الحالة بقوله: ﴿**إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً**﴾[3].

ومن أعظم جهل الإنسان وظلمه خيانة الأمانة فإنه يفقد أكثر مما يكسب، فهو يريد أن يحافظ على المال الذي أؤتمن عليه ليحوله إلى ماله، وذلك لأن المؤمن لم يكتب عليه ورقة، أو يأخذ شاهداً وما كان ذلك إلا لجهة الثقة والاطمئنان بالمؤمن وإلى مبادئه، فيكون هو الشاهد على نفسه. فمتى أخل بالأمانة فقد تزلزل إيمانه، فلا يصمد على مبادئه

---

(١) عوالي اللئالي ١: ٣٢٤.

(٢) المؤمنون: ٨

(٣) الأحزاب: ٧٢.

وقيمه ليؤدي الأمانة إلى صاحبها، وحينئذ يموت إيمانه ويطمس مبادئه ومُثله وقيَمَهُ بسبب انتهاكه لهذا المبدأ الذي عرضه الله تبارك وتعالى على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها.

إذن هذا المبدأ هو من أعظم المبادئ، وعليه تترتب أمور الناس أي تسير أمور الناس وفق مجموعة من المبادئ التي تجعل الناس يعيشون الاستقرار والطمأنينة والأمان، وذلك لأنّ الله تبارك وتعالى جعل احتياج الإنسان إلى أخيه الإنسان أمراً طبيعياً: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾[1].

أي سخّر بعضهم لبعضهم الآخر، فإذا صان الأمانة وحافظ عليها أرس في الأمة الثقة والتعاون، ومتى أزال ذلك المبدأ الذي أخذه الله تبارك وتعالى عليه وأزاله من وجدانه ومن قيمه ومن دينه ومن التزامه فإنه بذلك يهدد الواقع الاجتماعي حيث يجعل الناس لا يثق بعضهم بالبعض الآخر، وتصبح الحياة قاسية لا راحة فيها؛ لأنّه سوف يشك في كل فرد يريد أن يعطيه أمانة أو حاجة وبذلك تصبح الحياة قاسية وصعبة والله يريد للإنسان أن لا يعيش الحرج قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي

---

(١) الزخرف: ٣٢.

الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾[1].

يريد لك أن تعيش في هذه الحياة في سهولة ويسر وعند إهمال هذه المبادئ والقيم تصبح السهولة واليسر عسرًا وضيقًا على الإنسان لذلك نقرأ في الروايات أهمية أداء الأمانة.

يقول إمامنا الصادق عليه السلام: «**إنّ ضارب عليٍّ بالسيف وقاتل علي لو ائتمنني واستنصحني واستشارني ثم قبلت ذلك منه لأديت إليه الأمانة**»[2].

وعن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «**أقسم لقد سمعت النبي صلى الله عليه وآله يقول لي قبل وفاته بساعة مرارًا ثلاثًا: يا أبا الحسن أدِّ الأمانة إلى البر والفاجر فيما قلّ وجلّ، في الخيط والمخيط**»[3].

ومن الآثار الوضعية لفقد الأمانة وعدم تأديتها أمور كثيرة، منها نقص الدين، وزوال الإيمان فقد روي عن النبي صلى الله عليه وآله: «**لا إيمان لمن لا أمانة له**»[4]. وإذا فقد الإنسان إيمانه فماذا بقى له؟

لذا فأن هناك أمور تظهر جلية في عالم الدنيا كعقاب من الله حتى

(١) الحج: ٧٨.
(٢) تهذيب الأحكام ٦: ٣٥١.
(٣) بشارة المصطفى: ٥٧.
(٤) شرح الأزهار ١: ٢٣٦.

يتعظ الناس ولا يتمادون، كما حُكي عن تعذيب بعض الأقوام كتحويلهم قروداً وخنازير، أو أن يحل بهم البلاء ونقص من الأموال، أو الأمراض، وقد يشاهد الإنسان بنفسه بعض ذلك. ويلمسه بنفسه. ومما يذكر في صدد ذلك:

قصد أحد المؤمنين حج بيت الله وزيارة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام من شقة بعيدة، واصطحب معه ثروته وكان عنده مبلغ من المال كبير. فابتدأ سفره بزيارة الإمام أمير المؤمنين عليه السلام وبعْد الزيارة اتجه إلى الحج فما أراد أن يستصحب الأموال الكثيرة التي لديه؛ لأنه سيعود إلى النجف الأشرف، ولما وصل النجف سأل عن الأمين فيها حتى يؤمنه على المال؟ قيل له العطار الفلاني. فأعطاه الأموال و ذهب إلى الحج وبعد عودته إلى النجف ذهب إلى العطار لكي يسترد الأمانة إلا أن العطار أنكر معرفته بهذا الرجل، وبأنه أخذ منه.

فقال الرجل للعطار: أعطني الأمانة التي أعطيتك إياها.

فقال له أي أمانة؟ لم تعطني أي شيء

تحير ماذا يفعل بهذه المشكلة التي أبتلي بها، وهو مصدق عند الناس وهم يأتون لأخذ أماناتهم منه بسهولة، فطالبه بالأمانة مرات متعددة يقول له: لم تعطني أمانة، فأنت متوهم، لعلك أعطيتها غيري.

عندما يأس منه التجأ إلى أمير المؤمنين عليه السلام وتوسل به وفي المنام رأي الإمام أمير المؤمنين عليه السلام يقول له: أخرج إلى حدود النجف ومن

تراه هناك سيقوم بحل مشكلتك فأعرضها عليه. أفاق من نومه وذهب كما أمره الإمام عليه السلام ولكنه لم يشاهد الشخص الذي كان يتوقعه. فقد شاهد أنساناً كبيراً في السن ولكن مظهره لا يدل على أنه يستطيع أن يحل المشكلة أو يفعل له شيئاً. فلذلك شكك في أنه هل هو الرجل المقصود أم لا؟ فلذلك أحس بالإحباط فرجع متألماً، ثم رجع إلى النجف، وأتجه إلى صاحب الأمانة يحاول فيه، ويخوفه ولكن من غير فائدة ترجى. لذا عاود التوسل بالإمام أمير المؤمنين عليه السلام ونفس الرؤية رآها، وذهب كما أخبره الإمام ورأى نفس الشخص. فلما شاهدة مرة أخرى أخذ يخاطب نفسه ويوبخها بأنه لا يجب أن يعول على المنام ولعل ما شاهده ليس بحقيقة لأرجع أتوسل بالإمام أمير المؤمنين عليه السلام مرة أخرى فلما توسل قال له الإمام أمير المؤمنين: لا يحل المشكلة لك إلاّ هذا الذي رأيته.

أفاق من نومه وقرر أن يذهب إليه ويخاطبه لعله يجد عنده الحل فعرض عليه، فوافق الرجل العجوز أن يحل مشكلته فسأله: أين يصلي في أي مسجد؟

فأشار إليه صاحب المشكلة عن المسجد الذي كان يصلي فيه ذلك الرجل.

فقال الرجل العجوز: أنا أذهب معك و نصلي في نفس المسجد الذي يصلي فيه....وفعلا ذهب إلى الصلاة وعندما انتهت الصلاة أراد الشيخ أن يلقي محاضرة أخلاقية كعادته. فأوقفه صوت ذلك الرجل العجوز

مستأذناً من الشيخ بأن يسمح له بإلقاء الدرس والموعظة عنه. فوافق الشيخ وصعد الرجل العجوز المنبر فبدأ يتحدث لهم عن أهمية أداء الأمانة وقال لهم:

أنا رجل عجوز أريد أذكر لكم الآن قصة واقعية جرت لي وليست لغيري. عندما كنت شابّاً كنت أمتلك تجارة أتاجر بها وآخذ بضائع وأبيع هذه البضائع وكنت ملتزماً في غاية الالتزام، فأخذت بعض الدراهم من جاري اليهودي لأتعامل معه، على أن أرد له هذه الأموال فيما بعد، افتقدته فترة طويلة، بعَدها قلت في نفسي: هو يهودي فلماذا أتعب نفسي للبحث عنه، إنْ جاء أعطيته الأمانة، وإنْ لم يأت لم يضرني شيئاً، ولم أقصد التقصير أو أن آكل أمواله، كلا. وفي ليلة من الليالي رأيت أنّ القيامة قد قامت والناس يُحاسبون، في هذه الأثناء رأيت ذلك اليهودي في العذاب، والنار تلتهمه، فمر بي. فخاطب الملائكة قائلاً:

كيف أعذب وعندي حق أطلبه من ذلك الشخص الذي ينعم؟ فأريد أن آخذ حقي منه. وأشار بيده إلي، فجاءت به الملائكة إليّ فقال لي: أعطني حقي.

قلت: وكيف أعطيك حقك، ونحن الآن في عالم غير عالم.. أنت لم تأتِ لتطالب بحقك في عالم الدنيا؟ وأنا لم أرك.

قال: لماذا لم تبحث عني؟ لا مفر، لابد أن تعطيني أموالي.

قلت: أعطيك شيئاً آخر.

قال: لا أقبل لابد أن تعطيني أموالي أو أن أضع إصبعي هذا الملتهب بالنار على صدرك؟

قلت: فاستصغرت وضع إصبعه على صدري ولا سيما أني لا أملك غير هذه الخيار فوافقت. فما قلت له ذلك حتى وضع أصبعه على صدري ثم أبان عن صدره وإذا صدره كله قطعة مشوهة، فرأى الحضور في المسجد صدره فراعهم ما رأوه، ثم تابع الرجل حديثه وقال: هذا الأمر مر عليه أكثر من عشر سنين وأنا أتعالج عند الأطباء وأنفقت أموالي فلم أصل إلى نتيجة، بقيت أتعذب لأطهر من تلك اللوثة، وسأبقى بهذا الألم إلى أن أموت، وهذه موعظتي. وذكرت لكم قصتي حتى لا يبتلى بها أحد بمثل ما ابتلاني الله به لتقصيري في أداء الأمانة، فجئت اليوم أريد أن أعظكم والسلام عليكم ورحمة الله.

أتم الرجل حديثه فنزل من المنبر فأخذت كلماته مأخذاً كبيراً لدى الحضور فما شعر الرجل صاحب الأموال إلا بالرجل يأتيه ويقوله له: تعال ألم تعطني أمانة؟

قال له الرجل: يمكن واحد غيري لست أنا.

فرد عليه: لا، أنت، الملامح والسمات على وجهك تدلّ على أنك أنت الذي أعطيتني الأمانة، أريد أن تسامحني على تقصيري وهذه بعض العطورات أقدمها لك هدية مني. فأسترجع الرجل الأموال التي أعطاها ببركة التوسل بأمير المؤمنين علي عليه السلام.

ومن هنا نعلم أن الله سبحانه وتعالى لا يحب الخائن لقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾[1].

فمتى خذل الله الخائن ووكله إلى نفسه فأنه سيصاب بأمور كثيرة منها سلب التوفيق، والخسران المبين، ولذلك قال النبي الأعظم ﷺ: «**الأمانة تجلب الغناء والخيانة تجلب الفقر**»[2]، بل قد يخسر الإنسان أكبر شيء، وهو حرمانه من شفاعة محمد وآله، وحتى وإن كان على غير دينه. يقول النبي ﷺ: «**من خان أمانة في الدنيا ولم يردها إلى أهلها ثم أدركه الموت مات على غير ملتي ويلقى الله وهو عليه غضبان**»[3]. أسأل الله أن لا يكون حالك كذلك بحق محمد واله.

---

(١) يوسف: ٥٢.

(٢) وسائل الشيعة ١٢: ٢٢٥.

(٣) من لا يحضره الفقيه ٤: ١٥.

حسن الظن

يعتبر العالم بما له من المنزلة العظيمة كباب من أبواب الله يأتيه الناس لقضاء حوائجهم، فهم ورثة الأنبياء ﻊﻠﻴﻬﻣ ﺍﻠﺳﻼﻡ، والامتداد الطبيعي لهذا المنهاج المقدس. ولان المحتاج قد لا يفكر عادة إلا في قضاء حاجته قد يسيء الظن بالعلماء، ويتهمهم بسوء التصرف بالحقوق الشرعية، أو عدم اللامبالاة متناسياً أن لهؤلاء العلماء أموراً قد تخفى عن المحتاج. ولذلك إن لم يكن من أهل الوعي فقد يصدر منه ما لا يجب، بخلاف ما لو كان من المتقين المتأملين في حقائق الأمور.

حدثني الشيخ جعفر الهلالي عن أبيه الشيخ عبد الحميد أن أباه في بداية حياته العلمية مرت عليهم ظروف قاسية، وأيام عجاف جعلتهم يلجأون إلى آيه الله السيد ناصر السلمان المقدس من أجل أن يمدهم بما يعيد أمرهم إلى طبيعته ويسد حاجتهم. يقول الشيخ عبد الحميد:

اجتمعت أنا مع بعض طلاب العلم وذهبنا سوياً إلى منزل السيد ناصر وعرضنا عليه حاجتنا، وصعوبة الأوضاع التي نعيشها. فاعتذر لنا! بأنه لا توجد لديه حقوق لكي يعطيهم. فبينما نحن كذلك. فإذا برجل جاء

بحمار وعنده حقوق كثيرة. فلما رأينا ذلك اشرأبت أعناقنا، وحمدنا الله فالأمور ستفرج وإن الله لطف بنا سريعاً. ولكن سرعان ما بدد هذا الفرح لما تناهى إلى مسامعنا كلام السيد ناصر لذلك الرجل بأن يذهب بهذا المال للشيخ موسى بو خمسين وأصبنا بخيبة أمل... خرج الرجل فخرجنا بعده. ولكن كانت خطواتنا أسرع من خطواته، باتجاه منزل الشيخ موسى. فعرضنا حاجتنا إليه فرد علينا: لدي مسئول مالي، والأموال التي تصل تذهب إليه، والشيخ يقسم الأموال حسب الأوليات من الأسماء والفقراء وطلبة العلم، والأيتام، فان زاد المال الموجود عن الأشخاص المقرر لهم فإنه سيكون لكم منه نصيبا. فذهبنا إلى الشيخ عبد الله الزويد وكان هو المسئول المالي عند الشيخ، فأخبرناه بما قال الشيخ. فجرد الأموال وقسمها كل بحسبه فتبقى منه ما كان فيه خير لنا فخرجنا ونحن بحمد الله شاكرين.

ومن خلال هذه الحادثة قد نخرج بعدة نقاط مهمة وهي:

أولاً: إن اختلاف العلماء في الظاهر لا يعني أنهم يختلفون حقيقة وواقعاً بل يوجد بينهم اتفاق في مقام خدمة الدين وإن اختلفوا في بعض مصاديق العمل.

ثانياً: عدم حصول الشخص على حاجته من العالم أو المرجع أو الوكيل لا يعني أن نسيء الظن بهم، أو التكلم عليهم بل يجب علينا التحلي بالصبر وحسن الظن.

ثالثاً: إن العلماء لديهم مصاريف وأولويات يديرون بها مشاريعهم والموارد التي تأتيهم من الحقوق تصرف وفق هذه الأولويات، ولا يعني أن ما نراه نحن لابد أن يراه العالم.

رابعاً: قد تمر على العالم بعض الحالات أو الأوقات لا توجد لديه موارد مالية فلذلك لا يبذل، ولا يعطي، ليس بخلاً فيه أو إجحافاً بأحد بل راجع ذلك للظروف والحالات التي يقدرها للصرف.

فكر العالم

يعتبر العلم هو القوام الذي يحرك الأمم نحو التقدم والرقي، وبدونه فلا مجال لأي تطور في العالم، فالفرق بين الإنسان والحيوان هو في العقل. والعقل هو المعرفة التي تعبِر عن العلم. فمتى عقل الإنسان وعرف قادته المعرفة إلى صنع الحضارات، والرقي بها. وكما أن العلم طريق لبناء الأمم فإن الحفاظ عليه يحتاج إلى دماء تسيل وتراق حتى تبقَ الحضارة كما بناها رجالها وعلماؤها. وعندما نريد أن نضع ميزانا وفارقا بين دماء الشهداء التي أريقت، ومدد العلماء الذي كتب به العلم وخطت ملامحه، فإننا نجد أن مداد العلماء عند الله أعظم من دماء الشهداء. وهو إشارة حقيقية لعظمة العلم والعالم وذلك؛ لأن العلم والعالم يتحدان في شخص واحد فيكون العالم هو العلم ولذلك ما يصدر منه علماً وعظمة ففي رواية عن النبي ﷺ يقول: «**يوزن يوم القيامة مداد العلماء ودم الشهداء فيرجح عليهم مداد العلماء على دم الشهداء**»[1].

---

(١) كنز العمال ١٠: ١٤١.

وعن الإمام الصادق عليه السلام قال: «**إذا كان يوم القيامة جمع الله عز وجل الناس في صعيد واحد ووضعت الموازين فيوزن دماء الشهداء مع مداد العلماء فيرجح مداد العلماء على دماء الشهداء**»[1].

ونحن حينما نتساءل لماذا يرجح مداد العلماء على دماء الشهداء؟

فإن الجواب من قبل النبي الأعظم صلى الله عليه وآله يقول: «**أقرب الناس من درجة النبوة أهل العلم والجهاد**»[2]. وعنه صلى الله عليه وآله: «**طالب العلم ركن الإسلام ويعطى أجره من النبيين**»[3]. فمتى كان أقرب الناس إلى الأنبياء عليهم السلام هم العلماء، وأن أجرهم من أجر الأنبياء عليهم السلام فان العلماء لهم ما ليس لغيرهم. كما أن المقاتل إذا خرج من دون رأي عالم، كان قتاله وبالاً عليه.

وكذا الحال حينما نعمل نقوم بمقارنة بين العابد والعالم فإن ميزان العالم يفوق ميزان العابد فعن النبي صلى الله عليه وآله قال: «**فضل العالم أحب إليّ من فضل العبادة**»[4]، لكن لنرَ كيف يقرر صلى الله عليه وآله هذا العلم الذي هو

(١) من لا يحضره الفقيه ٤: ٣٩٩.

(٢) المحجة البيضاء ١: ١٤.

(٣) كنز العمال ١٠: ١٤٣.

(٤) بصائر الدرجات: ٢٧.

أفضل من العبادة يقول ﷺ: «**من خرج يطلب بابًا من علم ليرد به باطلاً إلى حق، أو ضلالة إلى هدىً كان عمله ذلك كعبادة متعبد أربعين عامًا**»[1]؛ لأن العالم عنده هدف من العلم، علمه يجعله وسيلة لإيصال الناس إلى الله، لربط الناس بالمبادئ.قال أمير المؤمنين عليه السلام: «**الكلمة من الحكمة يسمعها الرجل فيقول أو يعمل بها خير من عبادة سنة**»[2]؛ وذلك لأن العالم لا يتقوقع على نفسه ولا يحب الخير لذاته فقط بل يسعى لأخذ الناس نحو الهدى، ونحو الحق فهو يأخذ بيده الغافلين، الجهال، الذين لا يعلمون كيف يصلون إلى الحق، فهو يبين لهم الطريق، وبذلك يسمو إلى أعلى الدرجات ولكن أي عالم هذا. فهل كل من تعلم العلم وصل إلى هذا المقام أم أنه عالم خاص له صفات خاصة؟

العالم الذي لا تلتبس عليه اللوابس، العالم بزمانه هو العالم الحقيقي الذي يعرف ما يراد منه، وكيف يفعل ذلك من أجل إيصال كلمة الحق. فينظر بعين الله ولا يهمه جهل الجهال حتى لو نالوا منه. كما قيل «**الناس أعداء ما جهلوا**»، ومن هؤلاء العلماء الربانيين الحقيقيين الذين سخروا أنفسهم لخدمة الدين وإعلاء كلمة الحق العلامة الشيخ الشهيد مرتضى المطهري (رضوان الله عليه)، فهو عالم تنطبق عليه كلمة العالم العامل، همه

---

(١) الأمالي: ٦١٩.

(٢) بحار الأنوار ١: ١٤٨.

إيصال الناس إلى الله تبارك وتعالى لنرَ كيف كان أو ماذا كان يتحمل لإيصال الناس إلى الله تبارك وتعالى؟

كان رحمه الله يكتب في مجلة، هذه المجلة مجلة لا تلتزم بالقواعد الأخلاقية بل كان الهدف منها إشاعة الرذيلة والتشجيع على السفور الهدف منها يختلف مع هدف العلماء والرساليين، ومع ذلك كان الشهيد المطهري يكتب مقالات عن المرأة وعن أهمية الالتزام بالإسلام وبالشرع في هذه المجلة، وسياسة هذه المجلة تختلف أهدافها مع أهداف الشهيد المطهري رحمه الله، ومع ذلك كان يكتب مقالاته عن المرأة في هذه المجلة اسمها بالفارسي «زن روز» يعني المرأة العصرية بالترجمة العربية نال الشيخ المطهري من قاصري النظر الذين لا يفقهون أهمية التبليغ.

كيف يكتب هذا العالم في مجلة غير أخلاقية لا تتناسب مع شأنه، حتى قال له بعض الكتَّاب:

كيف يليق بك كعالم أن توضع صورتك بالعمامة في هذه المجلة هذا لا يليق بك؟

التفت إليه الشهيد مطهري رحمه الله قال له: أنا أكتب في مجلات ملتزمة ويصل صوتي وأفكاري إلى الآخرين، لكن هناك بعض الناس من غير الملتزمين لا يقرؤون المجلات الهادفة والملتزمة، وإنما يقرؤون هذه المجلات غير الملتزمة، فكتاباتي في هذه المجلة لإيصال صوت الحق وإبلاغ الأحكام الشرعية والفكر الإسلام الأصيل إلى الناس الذين لم

يطلعوا عليه. فلعل امرأة ضُللت فتسمع هذا الهدى أو شاب يافع يسمع أو يرى هذا القبس من النور الإلهي فيهتدي به إلى الصراط المستقيم.

ونحن حينما نتأمل كلام الشيخ المطهري (رضوان الله عليه)، نرى أنّ الكثير من الناس الذين كانوا يقرؤون في تلك المجلة غير الملتزمة عندما سمعوا صوت الحق يصدح، فمنهم من قلّ شرهم والبعض منهم بالفعل اهتدى وسار في طريق الحق ببركات هذه الكتابات الطيبة والجميلة.

ولذلك نرى أن النبي الأعظم ﷺ يقول للإمام علي عليه السلام: «**ولئن يهدي الله بك رجل رجلاً واحدًا خير لك مما طلعت عليه الشمس**»[1].

ونحن نقول عندما يقرر العالم أمراً معيناً ينبغي على المؤمن أن يُسند ويؤيد في توجهه لا أن يشكل عليه، ولكي نفهم ذلك نذكر الحكمة التي قالها السيد شرف الدين رحمه الله وهي من روائع الحكم: «**إنّ الهدى لا ينتشر إلاّ من حيث انتشر الضلال**»، ولأنه ـ السيد شرف الدين ـ كان ينظر بهذه النظرة كانت له أفكار ورؤى قد تخالف البعض، وقد نالت منه المعارضة بشكل كبير إلا أنه كان ينظر بعين الله، ففي زمان السيد شرف الدين كان الفرنسيون بحملاتهم الاستعمارية يستخدمون بعض الوسائل الإعلامية كالمجلات والجرائد باللغة العربية، كان يكتب ويشارك فيها

(١) الكافي ٥: ٢٨.

وكذا كان هو أول شخص أيضًا شجع على تأسيس المدارس النظامية وكانت المدارس النظامية عند بعض الفئات غير محمودة؛ لأنها من صنع الفرنسيين، وكل شيء يأتي من الفرنسيين يعني غير جيد حتى إذا كان علمًا نافعًا أيضًا فهو غير جيد، ولكن السيد شرف الدين (رحمه الله) كان بعكس ذلك فقد كان يشجع على الانخراط في هذه المدارس وتأسيس مدارس في مقابلها إذا استطعنا، ويقول ويكرر هذه الحكمة الجميلة: «إنّ **الهدى لا ينتشر إلاّ من حيث انتشر الضلال**».

ولهذه الحكمة والطريقة منه (رضوان الله عليه) أثر في كثير من الناس، حيث غيّر رأي الكثير منهم سواء من المخالفين أو المنحرفين. وكان تأثيره مثل السحر على طبقات المجتمع، الواعي منهم وغير الواعي.

كيف نحدد الميزان للعمل؟

أن الميزان الذي يتحرك منه العالم ليس نظرة زيد، أو بكر، ولا ما يقوله المجتمع عنه، وماذا سيخلف من نظرة، بل المدار على التكليف الشرعي حتى لو كان تكليفه يلزم منه أن يظهر في مظهر لا يليق برجل الدين، أو أن يتواجد في مكان لا يليق بالعالم م وجهة نظر الناس. فمادام تشخيص التكليف يقتضي ذلك، فيجب على العالم أن يقوم بواجبه وتكليفه الذي يقتضي منه نشر الحق والهدى والعلم والمعرفة حتى يعم دين الله.

ولذلك جاء عن النبي الأعظم ﷺ أنه قال: «**زكاة العلم تعليمه من**

لا يعلمه»[1]. ويقول الصادق عليه السلام: **«أنّ لكل شيء زكاة وزكاة العلم أن يعلمه أهله»**[2].

وتعليم العلم لمن عنده استعداد. فيكون من يملك استعداداً هو أهل العلم، وزكاة العلم أن يعلمه أهله ويقول صلى الله عليه وآله: **«ما تصدق الناس بصدقة مثل علم ينشر»**[3].

قال النبي صلى الله عليه وآله: **«يجيء الرجل يوم القيامة وله من الحسنات كالسحاب الركام، أو كالجبال الرواسي، فيقول: يا ربي أنّا لي هذا ولم أعملها؟ فيقول: هذا علمك الذي علمته الناس يُعمل به من بعدك»**[4].

واختلاف تشخيص المواقف لا يعني سقوطها عن صاحبها وعن من يرى التكليف في فعل معين، عليه أن يقوم به، ويدعو إليه.

وعند التعارض في المواقف يأخذ أحوطها وأسلمها في العمل، ويعمل به مع البذل في نشر العلم وتعليمه لمن يطلبه، ولا يبخل به لأن الله أمر الجهال أن يسألوا العلماء، وعلى العلماء أن يجيبوا على تساؤلات

---

(١) بحار الأنوار ٢: ٢٥.

(٢) ن.م

(٣) ن.م

(٤) بصائر الدرجات: ٢٥.

الجهال، ففي رواية عن الصادق عليه السلام ينقل عن جده علي عليه السلام: «**إنّ الله لم يؤخذ على الجهال عهدًا بطلب العلم حتى أخذ على العلماء عهدًا ببذل العلم للجهال**»[1]. ومتى تعلم هذا العلم وجب عليه أن يبلغه بالأسلوب الأمثل والطريقة الحسنة حتى يقع لدى الآخرين موقع القبول ويتحقق المراد ولذلك قال تعالى: ﴿**ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ**﴾[2].

(١) التحفة السنية: ١١.

(٢) النحل: ١٢٥.

قول «لا أعلم»

يجمع العلماء قديمًا وحديثًا من شرق الأرض وغربها على أنّ الإنسان مهما بلغ إليه من العلم أو حصل عليه من الفضل، فعلمه بالنسبة لجهله أقل من القليل. والعالم كلما ازداد علماً أيقن بجهله وبأنه لا يعلم فكلما ازداد في علمه وصل إلى إدراك بأنّ ما لديه من العلم بالنسبة لما يجهله قليلا جدا، هذه حقيقة ولكنّ بعض أدعياء العلم أي من الذين لا يتصفون بالعلم حقيقة، يظن أنه يعلم كل شيء، ويحيط بكل شيء والحال خلاف ذلك. فتشعب العلوم، وتفرعها تجعل العالم بتخصصه يعترف بعدم الإحاطه بكل فروعه ومسائله؛ لأن العلم يتطور مع الأيام، أو قل أنه غير محدود بحد وقدرة الإنسان مهما بلغت فهي محدودة، فكيف يستطيع المحدود أن يحيط باللا محدود؟

وكذا الإنسان المسدد من الله سبحانه وتعالى كالأنبياء والرسل وغيرهم، لا تجدهم يجيبون الناس بكل مسألة بل يحيلون بعض الأجوبة إلى الله، كأن يقول النبي ﷺ أنتظر حتى يأتني الوحي، وهذا واضح في

كثير من الآيات التي كانت تبدأ بقوله (قل..) فهو جواب لسؤال، ومن هذه الآيات قوله تعالى:

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأهِلَّة قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوْاْ الْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُواْ الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُواْ اللّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[1].

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبيِّنُ اللّهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾[2].

بل يعترف الأنبياء في بعض المسائل بعدم العلم ويقول إن هذه المسألة لا يعلمها إلا الله سبحانه وتعالى مثل قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لاَ يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلاَّ هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لاَ تَأْتِيكُمْ إِلاَّ بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾[3].

ولذا نرى سيرة وديدن علمائنا الأبرار الأكابر الجهابذة عندما يسألون

---

(١) البقرة: ١٨٩.

(٢) البقرة: ٢١٩.

(٣) الأعراف: ١٨٧.

في مسألة وهم لا يعرفون يجيبون وهو في تمام الوثاقة والطمأنينة ورباطة الجأش بأنهم لا يعرفون، إقتداءً بطريقة الأنبياء والمرسلين ومن هؤلاء الشيخ الأنصاري وهو من أكابر علمائنا فهو عظيم في علمه وتواضعه وتقواه، فقد كان يتعمد عندما يُسأل عن مسألة وهو لا يعلم جوابها حيث لا يقول فقط لا أعلم بل يكرر كلمة لا أعلم ثلاث مرات حتى يسمع الجميع.

وهو بهذه الطريقة يعلِّم طلاب العلم بأن لا يخجلوا من قول الحقيقة وإظهار عدم معرفتهم، ولا يكتفي بالقول بل يجعله درساً عملياً مؤثراً في قلوب طلاب العلم والعلماء والناس على حد سواء.

وليس هذا الأمر محصور على من وصل إلى مقام التقوى والورع بل حتى من لا يتنسب إلى الدين، وكانوا من العلماء الحقيقيين الذين يبحثون عن الحقيقة ويقولونها مثل:

موريس متر لينك[1] يقول: أعيد القول مرة أخرى أنني لا أعلم، بعَد لا أعلم شيئاً وأكرر ثانية أنه لا أحد يعلم شيئاً، فلو كان أحد يعلم شيئاً لأشاعه بين الناس ولأطلع الجميع عليه ولفهم الناس أسرار الخلقة، لم يستطيع أحد إلى الآن أن يعرف سر الخلق فما نعرفه عن أسرار الخلقة وأسرار العالم ونهايته إنما هو حاصل لما خطر في أذهاننا وعلى أساسه

---

(١) هو من أكابر العلماء حتى قيل في حقه أننا لو أسميناه سقراط العصر الحديث لقللنا من قيمته ولرفعنا قيمة سقراط.

نقيم النظريات بشأن هذه المسائل،ولم تلبث هذه النظرية فترة طويلة حتى يتبين لنا خواء هذه النظرية، وما قلته أنا في هذا الصدد إنما هو حصيلة ما توصل إليه فكري. ولا أدعي أنه صحيح ولو كان أحد في العالم يدعي صحة أقواله بشأن أسرار الخليقة فليدلي برأيه لنرَ ماذا يقول؟

جوي بول يقول: معلوماتنا كقطر في دائرة، فكلما اتسع القطر يتسع المحيط أضعافاً، لعل الأجيال القادمة تستطيع أن تتقدم في أعمالها العلمية وتكتشف أسرارًا جديدة عن الكائنات، لكنه من المؤسف جدّاً فينبغي أن نقاوم غرورنا ونعترف بأننا لا نعلم شيئاً عن أسرار الخلقة وعن سر الوجود، فرموز الحياة والموت وفلسفة الخلق وأشياء كثيرة أخرى ألغاز قد لا يكشف عنها العلم في القريب العاجل.

بل إن أحد العلماء الكبار لما سُئل عن مسألة فأجاب أنني لا أعلم قالت له المرأة السائلة: كيف لا تعلم والملكُ يغدق عليك هذه الأموال الكثيرة، وأنت رئيس العلماء ولا تعلم بهذه المسألة؟

فأجابها العالم: إنّ الملك يعطيني هذه الأموال على مقدار علمي ولو كان يريد أن يعطيني على مقدار جهلي لما وسعت مملكته وأضعاف مع مملكته أن يعطيني لأنّ الجهل أكثر من العلم بمراتب كثيرة.

ونحن عندما نتأمل هذه الأقوال يتولد لدينا قناعة، بأن نعترف بجهلنا أمام الآخرين، وأن لا نكابر في دعوى العلم لأنه غاية الجهل كما قال أمير المؤمنين عليه السلام: «**من ادعى من العلم غايته فقد أظهر من جهله**

نهايته»[1].

فانفض عنك غبار الجهل بالاعتراف بالقصور حتى تحصل على ما تجهله، وتدرك ما لم تعرفه، وإلا بقيت طيلة حياتك في جهل، مادمت ترفض ان تتعلم، وتعيش في جهل مركب كما يقول المناطقة. نجانا الله وإياكم من هذا. بل ما يجب علينا هو أن نقرع مسامع قلوبنا قول الله تعالى، ونتلوه على أنفسنا بين الحين والآخر حتى نعرف أنفسنا وحجمها الطبيعي قال تعالى: ﴿**وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّن الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً**﴾[2].

---

(١) عيون الحكم والمواعظ: ٤٣٣.

(٢) الإسراء: ٨٥.

الإفتاء بغير علم

يعتبر إصدار الفتوى من أخطر المراحل التي يمكن أن تصدر عن أي إنسان مهما كان مقامه، حتى لو وصل إلى أعلى المراتب فإن العلماء كانوا يفرون من الفتيا كفرارهم من الأسد، ويحذرون بعضهم بعضا من الفتيا، إلا أن هناك من يتهاون في هذا الأمر، ويعتقد أنها مجرد إطلاق كلمة في الهواء مباح، أو محرم، أو جائز، أو واجب وهكذا كلمة تقال. ويسعى في ذلك أن لا يوصف بالجهل وعدم معرفته بالدين، لذلك يتساهل في إطلاق الفتوى وكأنها شربة ماء، ومن هنا جاء التحذير القوي في ذلك على لسان الشريعة، حيث جاءت أحاديث متعددة في هذه المضامين منها:

ما ورد عن النبي ﷺ: **«من أفتى الناس بغير علم كان ما يفسده من الدين أكثر مما يصلحه»**[1].

وقال ﷺ: **«من أفتى الناس وهو لا يعلم الناسخ من المنسوخ**

---

(١) عوالي اللئالي ٤: ٦٥.

والمحكم من المتشابه فقد هلك وأهلك»[1].

ويقول الإمام الباقر عليه السلام: **«من أفتى الناس بغير علم ولا هدىً من الله لعنته ملائكة الرحمة وملائكة العذاب ولحقه وزر من عمل بفتياه»**[2].

ولذلك فإن مقام الإفتاء منصب هام لا يتصدى له إلاّ العالم. والعالم هو الذي وصل إلى مرتبة عالية من العلم أي أصبح مجتهدًا والاجتهاد علم يحتاج إلى بذل طاقات كبيرة ليصل الإنسان إلى تلك المرتبة، وأكثر من ذلك يقول العلماء إنّ الفتوى لا تتوقف فقط على الوصول إلى مرتبة الاجتهاد بل يحتاج الإنسان إلى أكثر من الوصول إلى مرتبة الاجتهاد أن يمتلك فطنة، أن يمتلك فهماً اجتماعياً، أن يكون على دراية بأوضاع الناس، وبفهم مقتضيات الزمان والمكان لماذا؟ لأنّ الفتوى التي تصدر من العالم لا يدري الناس هل هذه الفتوى صدرت بلحاظ الحكم الأولي،أم بلحاظ الحكم الثانوي؟

فقد يكون الشيء بعنوانه الأولي واجب أو مباح فينقلب إلى الحرام بالحكم الثانوي. مثال ذلك الصوم، إذا جاءك إنسان مريض وسألك قائلاً هل يجوز لي أن أصوم وأنا مريض؟

---

(١) عوالي اللئالي ٤: ٧٥.

(٢) بحار الأنوار ٢: ١١٨.

البعض يفكر قليلا فيرى أن هذه المريض يستطيع أن يتحمل المرض، لكن بما أنه يستطيع ولو بمشقة فتجعله يصوم. فيذهب هذا الشخص بجوابك ويصوم ثم يتأثر بصومه. حينها من يتحمل خطأ هذه الفتوى وذلك لأن هذه الفتوى التي أعطيته إياها خاطئة لأنّ الإنسان إذا مرض وجب عليه الإفطار وذلك لأن الرخصة له على شكل عزيمة يعني يجب عليه أن يفطر وصومه هذا الواجب يتحول إلى حرام من الناحية الشرعية ولا يمكن أن يتقرب إليه العبد بفعل محرم. ولكن الناس وللأسف ينظرون ويحللون ويشخصون من خلال نظرهم غافلين عن الخصوصيات وبعض الحيثيات التي يلاحظها الفقيه لذلك يستعجلون في الحكم وإعطاء الجواب للناس.

ضوابط الإفتاء:

إن معرفة الحكم وحده لا يكفي في أن تفتي الناس وتخبرهم بالحكم، وذلك لما قلنا من وجوب ملاحظات الحيثيات الكثيرة، مضافا إلى وجوب تحلي المفتي بالتقوى. والاحتياط الشديد مع مراعاة تعارض الأدلة والترجيح بينها وغيره، وهذا لا يمكن لأي إنسان عادي أن يتمكن منها. بل حتى بعض العلماء مع وجود العلم لديه وقدرتهم على الإفتاء إلا أنهم يتوقفون عن ذلك، ومن طريف ما يذكر أنه بعد وفاة أحد العلماء ذهب الناس إلى عالم آخر كان من أبرز تلامذته علماً، وهو السيد محمد الفشاركي، أستاذ الشيخ عبد الكريم الحائري مؤسس الحوزة العلمية في

قم، جاءوا إلى هذا العالم قالوا له مولانا سيدنا نريد أن نقلدكم. اطرحوا رسالتكم العملية.

قال لهم: لا.

فردوا عليه: ألست أنت أبرز تلاميذ أستاذك، وأكثر إحاطة بالمباني الفقيهة لديه، كما أنكم تمتلكون قدرات علمية كبيرة تجعلكم الأعلم.

فوافقهم على ما قالوا ولكن أعتذر وقال: لا أقدر أن أتصد لهذا الموقف.

قالوا له: لماذا؟

قال: لأنّ ليس عندي قدرة لفهم وتشخيص المواقف من النواحي الاجتماعية.

قال له: إذن لمن نرجع؟

قالوا: ارجعوا للشيخ محمد تقي الشيرازي هذا عنده فهو فطن وخبير يستطيع أن يشخص لكم الأمور.

قالوا له: يمكن تكون أعلم منه.

قال: أنا يمكن أن أكون أعلماً، ولكني لست أولى فلابد من الرجوع لذاك العالم.

ونحن حينما نتساءل عن سر تصرفه نجد لأنّ الفتوى لا تحتاج إلى علم فقط، بل تحتاج إلى فهم وتشخيص وقدرة إدراية، ولذلك السيد الإمام رحمه الله يقول: من الشؤون والمقتضيات التي لابد أن تتوفر للعالم

الفقيه، أن يكون لديه علم بمقتضيات الزمان والمكان ثم يقول رحمه الله إنّ الزمان والمكان لهما دخل في تشخيص الحكم الفقهي، والوظيفة العملية للمكلفين.

لهذا نرى أن الروايات تحذر من الفتوى، الإمام الصادق عليه السلام يقول: «**خصلتين مهلكتين تفتي الناس برأيك أو تدين بما لا علم**»[1]

ويقول النبي صلى الله عليه وآله: «**أجرئكم على الفتوى أجرئكم على النار**».

ملاحظة الزمان والمكان في الفتوى:

تعتبر فتوى المرجع الكبير السيد محمد الشيرازي بتحريمه للتنباك من أقوى الفتاوي التي صدرت من قبل العلماء تدل فيها على ملاحظة الزمان والمكان. وهذه الفتوى لها صدى كبير جدا، وتأثير خطير على النظام الاقتصادي في إيران وبريطانيا في ذلك الوقت[2].

ولما رأت بريطانيا أن مصالحها مهددة بالخطر، فكرت في طريقة أخرى تجعل من فتوى السيد الشيرازي غير قوية، ولذلك سعت من خلال الارتباط ببعض العملاء لها، أو السذج إلى التوجه إلى النجف

---

(١) بحار الأنوار ٧٥: ٢٥٢.

(٢) كانت هناك اتفاقية بين بريطانيا آنذاك كدولة وبين إيران، هذه الاتفاقية كان فيها إخلال بموازين المصلحة العائدة إلى إيران فالفوائد الكبرى تجتنيها بريطانيا، لأنها تشتري التنباك من المزارعين الإيرانيين باخس الاثمان ثم تعود وتبيعه عليهم بأغلى الأسعار فيوجب ذلك إخلالاً بالاقتصاد الإيراني.

للمرجعية الكبرى التي توازي مرجعية الشيرازي كي يحثونه على الإفتاء بفتوى تخالف فتوى المجدد الشيرازي وبذلك تضعف قوتها، وتسبب إرباكاً في أوساط الناس بين من يقول: إن مرجعي لم يحرم، وآخر يحرم، فيقعون في نقاش وخلاف يضعف الجوهر الأساسي لفتوى المجدد الشيرازي.

ذهب الوفد الذي شكلته بريطانيا إلى الشيخ زين العابدين المازندراني فدخلوا عليه وسلموا وقالوا له مستفهمين: أحلال محمد حلال إلى يوم القيامة وحرامه حرام؟

قال لهم الشيخ: نعم، حلاله حلال إلى يوم القيامة وحرامه حرام لا أحد يستطيع أن يحلل أو يحرم إلاّ ما يريده الله تبارك وتعالى، التحليل والتحريم بيد مَن؟ بيد المشرع.

قالوا له: ألم يكن التبغ حلالا في السابق ؟

فأجابهم: نعم حلال.

قالوا له: إذن التبغ كان حلالاً ما هي العلة التي جعلت السيد محمد حسن الشيرازي يفتي بالحرمة ويصبح حراماً، ألم يتغير حلال محمد؟

قال لهم: نعم، حلاله حلال ولكن الأحكام الشرعية على قسمين فتارة الحكم له عنوان أولي، وأخرى الحكم له عنوان ثانوي وشرح لهم كيف تتحول الأحكام بحسب العناوين من الحلال الواجب يتحول إلى حرام، وفتوى السيد الشيرازي جعلت التبغ بالعنوان الثانوي حرام ويجب

على الجميع أن يتركوا التبغ لما فيه من عناوين ثانوية توجب سيطرة المستعمر على المسلم وهو حرام؛ لأنه في ضرر الإسلام والمسلمين.

وبذلك رجع الوفد خائباً؛ لأنه لم يحقق غايته وهدفه، كل ذلك بسبب الوعي اللازم الموجود عند المرجعية الشيعية ووعي في الفقاهة وفي فقاهة الزمان والمكان.

متى يطلق على العالم فقيها؟

أولا: أن يربط الناس بالله سبحانه وتعالى ويكون غير موجب لقنوط الناس من رحمة الله. عن أمير المؤمنين عليه السلام: «**ألا أخبركم بالفقيه حق الفقيه؟ قالوا بلى، قال** عليه السلام: **من لم يرخص الناس في معاصي الله ولم يقنطهم من رحمة الله ولم يؤمنهم من مكر الله ولم يدع القرآن رغبة عنه إلى ما سواه**»[1].

ويقول عليه السلام: «**الفقيه كل الفقيه من لم يقنط الناس من رحمة الله ولم يؤيسهم من روح الله ولم يؤمنهم من مكر الله**»[2].

ثانياً: أن يفقه ويفهم كلام أهل البيت عليهم السلام عنه عليه السلام: يقول «**أنتم أفقه الناس إذا عرفتم معاني كلامنا**»[3].

---

(١) تحف العقول: ٢٠٤.

(٢) عيون الحكم والمواعظ: ٥٥.

(٣) بصائر الدرجات: ٣٤٩.

ويقول عليه السلام: «**لا يكون الرجل منكم فقيهًا حتى يعرف معاريض كلامنا**»[1].

ويقول عليه السلام: «**إنّ والله لا نعد الرجل من شيعتنا فقيهًا حتى يُلحن له فيعرف اللحن**»[2]، أي يفهم مقصود كلامنا.

ولأن الفقيه له مرتبة عظيمة، نجد أن الرسول صلى الله عليه وآله يقول: «**فقيه واحد أشد على الشيطان من ألف عابد**»[3]. ولكن أي فقيه؟

أن الفقيه الذي يفهم كلام أهل البيت عليهم السلام والذي يعرف لحن قولهم وبذلك يخرج الناس من الضلالة إلى الهدى، ومن الجهالة إلى العلم ولذلك يكون أعظم شيء على الشيطان هو الفقيه.

عن النبي الأعظم صلى الله عليه وآله: «**ما من شيء أقطع لظهر إبليس من عالم يخرج في قبيلة**»[4].

---

(١) معاني الأخبار: ٢.

(٢) بحار الأنوار ٥١: ١١٢.

(٣) عوالي اللئالي ١: ١٨.

(٤) كنز العمال ١٠: ١٤٨.

كظم الغيظ

الكمال الإنساني يتوقف على سلسلة من العوامل التي يجب أن تتخلق بها الذات ليصل صاحبها إلى الكمال ومن أهم الأمور التي يصل بها الإنسان إلى كماله كظم الغيظ، وسرعان ما ينحدر الإنسان من كماله من خلال أنه لم يستطع أن يسيطر على الغضب، وبالتالي يهدم كل عمل يقوم به الإنسان، ولذلك نلاحظ أن العظماء لم يصلوا إلى الكمال إلا من خلال السيطرة على الغضب.ومن هؤلاء العظماء الشيخ جعفر كاشف الغطاء. فقد حلق في مراتب الكمال ويعبر عن نفسه في بعض الكلمات: كنت جعيفر ثم أصبحت جعفر ثم الشيخ جعفر ثم شيخ العراقيين.

فيذكر للشيخ حادثة تبين فضله ومقدار تحليه بالأخلاق الحسنة وكظم الغيظ. فقد كان الشيخ في إحدى المدن الإيرانية وهي يزد وكان يؤم الجماعة. ولشهرته العظيمة فمتى أم الجماعة بمقامه العلمي ومكانته القدسية والروحانية يأتيه آلاف من المصلين للإتمام به (رضوان الله عليه) وفي يوم من الأيام جاء أحد الفقراء من السادة وكان ضعيف الحال طلب من الشيخ المساعدة.

وقال للشيخ: يا شيخنا أريد مساعدة.

الشيخ لم يكن لديه مالاً ليعطيه، فاعتذر منه وغضب ذلك السيد في وجه الشيخ أمام المصلين فبصق في وجه الشيخ، مما أثار حمية وغضب بعض المصلين الذين أرادوا ضرب السيد الفقير إلا أن الشيخ رفض ذلك . فالتفت إلي الناس فقال وقد أشار بيده إلى الرجل الفقير: هذا ابن رسول الله. كل من يحب الشيخ جعفر فليساعد هذا السيد.

ولم يكتفي الشيخ بذلك بل رفع ثوبه وأخذ يجمع بنفسه لهذا الفقير المال من الناس..فجمعها وأعطاها إياه وأعتذر منه أيضاً.

ونحن حينما نتأمل ذلك لا نجد إلا أن نقف إجلالاً وإكباراً لهذه الشيخ الجليل ولا سيما أن كثيراً من الناس ينطلقون من خلال ردود الفعل أما الإنسان الكامل فهو ذلك الشخص الذي يتحكم بأعصابه وبنفسه ومن خلال هذه السيطرة يحلق في مراتب الكمال.

النبي ﷺ يقول: «**الغضب يفسد الإيمان كما يفسد الخل العسل**»[1]. وعنه ﷺ: «**من كف غضبه كف الله عنه غضبه يوم القيامة**»[2]. وفي رواية: «**كف عنه عذابه**»[3].

---

(١) الكافي ٢: ٣٠٢.

(٢) مكارم الأخلاق: ٣٥٠.

(٣) عيون أخبار الرضا ١: ٧٦.

وعن الباقر عليه السلام: «**أي شيء أشد من الغضب أن العبد ليغضب فيقتل النفس التي حرم الله، ويقذف المحصنة**»[1]، «**من كف غضبه ستر الله عورته**»[2].

فالإنسان يحيط به الضعف والنقص من جميع جوانبه فإذا استطاع أن يسيطر على غضبه فإن الله يبدي محاسنه للآخرين، ويظهره بصفات الكمال. وفي رواية أخرى عن الإمام الصادق عليه السلام: «**في التوراة مكتوب يا بن ادم اذكرني حين تغضب أذكرك حين غضبي**»[3].

وقد قال تعالى في كتابه الشريف مدحاً لمن يتصف بكظم الغيظ ﴿**الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاء وَالضَّرَّاء وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ**﴾[4].

قال السجاد عليه السلام: «**الغضب مفتاح كل شر**»[5].

كثير منا وللأسف يطلق لنفسه العنان أن تتحكم فيها القوى الغضبية بحيث تخرجها عن حد الاعتدال، فما تشعر إلا وقد ارتكبت أكبر حماقاتها على أقرب الناس لها، سواء كان في نطاق الأسرة، أو نطاق

---

(١) الكافي ٢: ٣٠٣.

(٢) ن.م

(٣) الكافي ٢: ٣٠٤.

(٤) آل عمران: ١٣٤.

(٥) الكافي ٢: ٣٠٣.

المجتمع وبعدها لا ينفع الندم ولا يمكن تعويض تلك الخسارة. من هنا يجب أن ينطلق الإنسان من صفة كظم الغيظ في كل مراحل حياته ويحكِّم العقل وسيرى فضل الله. ولا يكفي أن يكظم الإنسان غضبه بل لابد أن يعفو عمن أخطأ في حقه، ويسعى في إصلاحه، عندها يكون قد سيطر على نفسه وصيرها وفقاً لحكم العقل، جعلنا الله وإياكم من السائرين على هذه النهج المحمدي الأصيل.

لقد تم الانتهاء من تسويد هذه الصفحات والوريقات بيد العبد الآثم الفقير إلى الله توفيق بن صالح بن مهدي بو خضر عفى الله عن سيئاته وحشره مع محمد وآله وجعل هذا العمل قربة إلى الله ومن حسناته، وأن يجعلنا من علماء آل محمد أنه فعال لما يريد وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

تم بحمد الله الفراغ منه في عصر يوم

٢٥-١٠-١٤٢٥هـ

في ذكرى شهادة الإمام الصادق عليه السلام

في مدينة الإحساء الطيبة صانها الله من كل سوء

الفهرس